

العمارة الحرفية

لجبران خليل جبران



Bibliotheca Alexandrina



الهيئة العامة لمكتبة الاسكندرية
رقم التصنيف : 802.2
رقم التسلسل : ١٤٨٨

الكتاب

جبران خليل جبران

« إن جميع كتابات جبران تدعو إلى التفكير العميق . فإن كنت تخاف أن تفكر فالأجدر بك ألا تقرأ جبران .. »



طار الجروب

للبيئات

٢٨ ش الفجالة - القاهرة





رسم المؤلف



حفار القبور

في وادى ظل الحياة ، المرصوف بالعظام والجماجم ، سرت وحيداً
في ليلة حجب الضباب نجومها ، وخامر الهول سكيتها .

هناك ، على ضفاف نهر الدماء والدموع المنساب كالحية الرقطاء ،
المتراكم كأحلام المجرمين ، وقفت مصغياً لهمس الأشباح ، محققاً
باللاشئ .

ولما انتصف الليل وقد خرجت مواكب الأرواح من أوكارها ،
سمعت وقع أقدام ثقيلة تقترب منى ، فالتفت فإذا بشبح جبار مهيب
منتصب أمامى ، فصرخت مدعوراً « ماذا تريد منى ؟ » .

فنظر لى بعينين مشعشتين كالمسارج ثم أجاب بهدوء « لا أريد شيئاً
وأريد كل شئ » .

قلت « دعنى وشأنى وسر فى سبيلك » .

فقال مبتسماً « ماسببلى سوى سبيلك » فأنا سائر حيث تسير

ورايض حيث تربض » .

قلت « جئت أطلب الوحدة فخلنى ووحدى » .

فقال « أنا الوحدة نفسها فلماذا تخافنى ؟ » .

قلت « لست بخائف منك » .

فقال « إن لم تكن خائفاً فلماذا ترتجف مثل قصبية أمام الريح » .
قلت « إن الهواء يتلاعب بأثوابي فترتجف أما أنا فلا أرتجف » .
فضحك مقهقهاً بصوت يضارع ضجيج العاصفة ثم قال « أنت
جبان تخافني وتخاف أن تخافني فخوفك مزدوج ولكنك تحاول إخفاءه
عني وراء خداع أو هي من خيوط العنكبوت فتضحكني وتغيظني » .
ثم جلس على الصخر فجلست قسر إرادتي محمداً بملاحمه المهيبة .
وبعد هنيهة خلتها ألف عام نظر إليّ مستهزئاً وسألني قائلاً : « ما
اسمك ؟ » .

قلت « اسمي عبد الله » .

فقال « ما أكثر عبيد الله وما أعظم متاعب الله بعبيده ، فهلا دعوت
نفسك سيد الشياطين وأضفت بذلك إلى مصائب الشياطين مصيبة
جديدة » .

قلت « اسمي عبد الله وهو اسم عزيز أعطاني إياه والدى يوم ولادتي فلن
أبدله باسم آخر » .

فقال « إن بلية الأبناء في هبات الآباء ومن لا يحرم نفسه من عطايا آباءه
وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات » .
فحنييت رأسي مفكراً بكلماته ، مسترجعاً إلى حافظتي رسوم أحلام
شبيهة بحقيقته ثم عاد وسألني قائلاً « وما صناعتك ؟ » .

قلت « أنظّم الشعر وأنتره ولي في الحياة آراء أطرحتها على الناس » .
فقال « هذه مهنة عتيقة مهجورة لا تنفع الناس ولا تضرهم » .
قلت « وماذا عسى أن أفعل بأيامي وليالي لأنفع الناس » .

فقال « اتخذ حفر القبور صناعة تريح الأحياء من جثث الأموات
المكردة حول منازلهم ومحاكمهم ومعابدهم » .

قلت « لم أر قط جثث الأموات متكردة حول المنازل » .

فقال « أنت تنظر بعين الوهم فترى الناس يرتعشون أمام عاصفة الحياة
فتظنهم أحياء وهم أموات منذ الولادة ولكنهم لم يجدوا من يدفنهم فظلوا
متطرحين فوق الثرى ورائحة التتن تبعث منهم » .

قلت وقد ذهب عنى بعض الوجمل « وكيف أميز بين الحى والميت
وكلاهما يرتعش أمام العاصفة ؟ » .

فقال « إن الميت يرتعش أمام العاصفة أما الحى فيسير معها راكضاً ولا
يقف إلا بوقوفها » .

واتكأ إذ ذاك على ساعده فبان عضاياه المحبوكة كأصول سندية
مملوءة بالعزم والحياة ثم سألتني قائلاً « أمتزوج أنت ؟ » .

قلت « نعم وزوجتى امرأة حسناء وأنا كيف بها » .

فقال « ما أكثر ذنوبك ومساوئك — إنما الزواج عبودية الإنسان لقوة
الاستمرار فإن شئت أن تتحرر طلق امرأتك وعش خالياً » .

قلت « لى ثلاثة أولاد كبيرهم يلعب بالأكر وصغيرهم يلوك الكلام
ولا يلفظه فماذا أفعل بهم ؟ »

فقال « علمهم حفر القبور ، وأعط كل واحد رفشاً ثم دعهم
وشأنهم » .

قلت « ليس لى طاقة على الوحدة والانفراد فقد تعودت لذة العيش بين
زوجتى وصغارى فإن تركتهم تركتنى السعادة » .

فقال « ما حياة المرء بين زوجته وأولاده سوى شقاء أسود مستتر وراء
طلاء أبيض . ولكن إن كان لابد من الزواج فاقترن بصبية من بنات
الجن » .

قلت مستغرباً « ليس للجن حقيقة فلماذا نخدعنى ؟ »
فقال « ما أغباك فتى — ليس لغير الجن حقيقة ومن لم يكن من الجن
كان في عالم الريب والالتباس » .

قلت « وهل لصبايا الجن ظرف وجمال » .

فقال « لهن ظرف لا يزول وجمال لا يذبل » .

قلت « أرني جنية فأقنع » .

فقال « لو كان بإمكانك أن ترى الجنية وتلمسها لما أشرت عليك
بزواجها » .

قلت « وما النفع من زوجة لا ترى ولا تمس ؟ » .

فقال « هو نفع بطيء ينتج عنه انقراض المخاليق والأموات الذين
يحتلجون أمام العاصفة ولا يسرون معها » .

وحول وجهه عنى دقيقة ثم عاد وسألنى قائلاً « وما دينك ؟ » .

قلت « أؤمن بالله وأكرم أنبياءه وأحب الفضيلة ولى رجاء
بالآخرة » .

فقال « هذه ألفاظ رتبها الأجيال الغابرة ثم وضعها الاقتباس بين
شفتيك أما الحقيقة المجردة فهي أنك لا تؤمن بغير نفسك ولا تكرم سواها
ولا تهوى غير أميالها ولا رجاء لك إلا بخلودها . منذ البدء والإنسان يعبد
نفسه ولكنه يلقبها بأسماء مختلفة باختلاف أمياله وأمانيه فتارة يدعوها

البعل وطوراً المشتري وأخرى الله .
ثم ضحك فأنفجرت ملامحه تحت نقاب من الهزء والسخرية وزاد
قائلاً « ولكن ما أغرب الذين يعبدون نفوسهم ونفوسهم جيف
منتنة » .

* * *

ومرت دقيقة وأنا أفكر بأقواله فأجد فيها معاني أغرب من الحياة
وأهول من الموت وأعمق من الحقيقة . حتى إذا ماتاهت فكرتي بين
مظاهره ومزاياه ، وهاجت أميالي لاستعلان أسراره وخفائياه ، صرخت
قائلاً « إن كان لك رب فربك قلى لى من أنت » .

قال « أنا رب نفسى » .

فقلت « وما اسمك ؟ » .

قال « الإله المجنون » .

فقلت « وأين ولدت ؟ »

قال « فى كل مكان » .

فقلت « وأى متى ولدت ؟ » .

قال « فى كل زمان » .

فقلت « ممن تعلمت الحكمة ، ومن ذا الذى باح لك بأسرار الحياة

وبواطن الوجود ؟ »

قال « لست بحكيم فالحكمة صفة من صفات البشر الضعفاء بل أنا

مجنون قوى أسير فتميد الأرض تحت قدمى وأقف فتقف معى مواكب

النجوم . وقد تعلمت الاستهزاء بالبشر من الأبالسة ، وفهمت أسرار

الوجود والعدم بعد أن عاشرت ملوك الجن ورافقت جبايرة الليل .
فقلت « وماذا تفعل في هذه الأودية الوعرة وكيف تصرف أيامك
ولياليك ؟ »

قال « في الصباح أجذف على الشمس ، وعند الظهيرة ألعن البشر ،
وفي المساء أسخر بالطبيعة ، وفي الليل أركع أمام نفسي وأعبدها » .
فقلت « وماذا تأكل وماذا تشرب وأين تنام ؟ » .
قال « أنا والزمان والبحر لا ننام ولكننا نأكل أجساد البشر ونشرب
دماءهم ونتحلى بلهاتهم » .

وانتصب إذ ذاك مكبلاً ذراعيه على صدره ثم أحدق بعيني وقال
بصوت عميق هادئ « إلى اللقاء فأنا ذاهب إلى حيث تلثم الغيلان
والجبايرة »

فهتفت قائلاً « أمهلني دقيقة فلي سؤال آخر » .
فأجاب وقد انجذب بعض قامته بضباب الليل « إن الآلهة المجانين لا
يمهلون أحداً — فإلى اللقاء » .

واختفى عن بصري وراء ستائر الدجى وتركني خائفاً طائشاً محتاراً
به وبنفسى .

ولما حولت قدمي عن ذلك المكان سمعت صوته متموجاً بين تلك
الصخور الباسقة قائلاً :

« إلى اللقاء إلى اللقاء » .

وفي اليوم التالي طلقت امرأتى وتزوجت صبية من بنات الجن ، ثم

أعطيت كل واحد من أطفالى رفشاً ومحفراً وقلت لهم « اذهبوا وكلما
رأيتم ميتاً واروه فى التراب » .
ومن تلك الساعة إلى الآن وأنا أحفر القبور وألحد الأموات ، غير أن
الأموات كثيرون وأنا وحدى وليس من يسعبنى !

العبودية

إنما الناس عبيد الحياة وهي العبودية التي تجعل أيامهم مكتتفة بالذل والهوان ولياليهم مغمورة بالدماء والدموع .
ها قد مر سبعة آلاف سنة على ولادتي الأولى وللآن لم أر غير العبيد المستسلمين والسجناء المكبلين .

لقد جيت مشارق الأرض ومغاربا وطفت في ظل الحياة ونورها ، وشاهدت مواكب الأمم والشعوب سائرة من الكهوف إلى الصروح ، ولكنني لم أر للآن غير رقاب منحنية تحت الأثقال ، وسواعد موثوقة بالسلاسل ، وركب جائية أمام الأصنام .

وقد اتبعت الإنسان من بابل إلى باريس ومن نينوى إلى نيويورك ورأيت آثار قيوده مطبوعة على الرمال بجانب آثار اقدمه ، وسمعت الأودية والغابات تردد صدى نواح الأجيال والقرون .

دخلت القصور والمعاهد والهياكل ، ووقفت حذاء العروش والمذابح والمنابر؛ فرأيت العامل عبداً للتاجر والتاجر عبداً للجندي ، والجندي عبداً للحاكم والحاكم عبداً للملك ، والملك عبداً للكاهن ، والكاهن عبداً للصنم والصنم تراب جبلته الشياطين ونصيته فوق رابية من جماجم الأموات .

دخلت منازل الأغنياء الأقوياء وأكواخ الفقراء الضعفاء، ووقفت في الخنادق الموشاة بقطع العاج وصفائح الذهب ، وفي المآوى المفعمة بأشباح اليأس وأنفاس المنايا فرأيت الأطفال يرضعون العبودية مع اللبن ، والصبيان يتلقنون الخضوع مع حروف الهجاء ، والصبايا يرتدين الملابس مبطنّة بالانقياد والخنوع ، والنساء يهجن على أسرة الطاعة والامتثال .

اتبعت الأجيال من ضفاف الكنج إلى شاطئ الفرات إلى مصب النيل إلى جبل سينا إلى ساحات أثينا إلى كنائس رومية إلى أزقة القسطنطينية إلى بنايات لندن فرأيت العبودية تسير بكل مكان في موكب العظمة والجلال والناس ينحرون الفتيان والعذارى على مذابحها ويدعونها إلهاً ، ثم يسكبون الخمر والطيوب على قدميها ويدعونها ملكاً ، ثم يحرقون البخور أمام تماثيلها ويدعونها نبياً ، ثم يخرون ساجدين لديها ويدعونها شريعة ، ثم يتحاربون ويتقاتلون من أجلها ويدعونها وطنية ، ثم يستسلمون إلى مشيقتها ويدعونها ظل الله على الأرض ثم يحرقون منازلهم ويهدمون مبانيهم بإرادتها ويدعونها إخاء ومساواة ثم يجدون ويجاهدون في سبيلها ويدعونها مالا وتجارة .. فهي ذات أسماء عديدة وحقيقة واجدة ومظاهر كثيرة لجوهر واحد ، بل هي علة أزلية أبدية تجيء بأعراض متباينة وقروح مختلفة يتوارثها الأبناء عن الآباء مثلما يتوارثون نسمة الحياة وتلقى بذورها العصور في تربة العصور مثلما تستغل الفصول ما تزرعه الفصول .

وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات وأشكالها :
العبودية العمياء — وهى التى توثق حاضر الناس بماضى آبائهم وتنيخ
نفوسهم أمام تقاليد حدودهم وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة
وقبوراً مكلسة لعظام بالية .

والعبودية الخرساء — وهى التى تعلق أيام الرجل بأذيال الزوجة التى
يمقتها وتلصق جسد المرأة بمضجع الزوج الذى تكرهه وتجعلهما من الحياة
بمنزلة النعل من القدم ...

والعبودية الصماء — وهى التى تُكره الأفراد على اتباع مشارب
محيطهم والتلون بألوانه والارتداء بأزيائه فيصبحون من الأصوات
كرجع الصدى ومن الأجسام كالحاليات .

والعبودية العرجاء — وهى التى تضع رقاب الأشداء تحت سيطرة
المحتالين وتسلم عزم الأقوياء إلى أهواء الطامعين بالمجد والاشتهار فيمسون
مثل آلات تحركها الأصابع ثم توقفها ثم تكسرها .

والعبودية الشمطاء — وهى التى تهبط بأرواح الأطفال من الفضاء
المتسع إلى منازل الشقاء حيث تقيم الحاجة بجانب الغباوة ويقطن الذل فى
جوار القنوط فيشبون تعساء ويعيشون مجرمين ويموتون مرذولين .

والعبودية الرقطاء — وهى التى تتباع الأشياء بغير أثمانها وتسمى
الأمر بغير أسمائها فتدعو الاحتيال ذكاء والثروة معرفة والضعف ليناً
والجبانة إباء .

والعبودية العوجاء — وهى التى تحرك بالخوف السنة الضعفاء
فيتكلمون بما لا يضمرون ويصبحون بين أيدي المسكنة مثل ثوب تطويه

وتنشره .

- والعبودية الحدباء — وهى التى تقود قوماً بشرائع قومياً آخرين .
- والعبودية الجرباء — وهى التى تتوج أبناء الملوك ملوكاً .
- والعبودية السوداء — وهى التى تسم بالعار أبناء المجرمين الأبرياء .
- والعبودية للعبودية نفسها هى قوة الاستمرار .

ولما تعبت من ملاحقة الأجيال ، ومللت النظر إلى مواكب الشعوب والأمم جلست وحيداً فى وادى الأشباح حيث تختبئ خيالات الأزمنة الغابرة وتربض أرواح الأزمنة الآتية : هناك رأيت شبحاً هزيعاً يسير منفرداً محققاً بوجه الشمس فسألته (من أنت وما اسمك ؟) .

قال « اسمى الحرية » .

قلت « وأين أبناؤك ؟ » .

قال « واحد مات مصلوباً وواحد مات مجنوناً وواحد لم يولد بعد »

ثم توأرى عن عيني وراء الضباب .

الملك السجين

خفف عنك أيها الملك الأسير فلست في سجنك أشد بلاء منى في
جسدى. اريض وكن متجلداً يا أبا الأهوال ، فالاضطراب أمام النوائب
حرى بينات آوى ولا يجمل بالملوك المسجونين سوى الاستهزاء بالسجن
والسجان .

سكن روعك يافتى العزم وانظر إلتى فأنا بين عبيد الحياة مثلك بين
قضايا القفص ، وما الفرق بيننا سوى حلم مزعج يجاور روحى ولكنه
يخشى الاقتراب إليك .

كلانا منفى عن بلاده بعيد عن أهله وأحبابه فخفض عليك جأشك
وكن مثلى صابراً على مضمض الأيام والليالى ، ساخراً بهولاء البضعاء
الذين يتغلبون علينا بعددهم لا بعزم أفرادهم .

وما عسى ينفع الزئير والضجيج والناس طرش لا يسمعون ؟
لقد صرخت قبلك فى آذانهم فلم أستوقف غير أشباح الدجى ،
وتفحصت مثلك طبقاتهم فلم أجد بينهم سوى جبان يستبسل متجبراً
أمام المقيدىن بالسلاسل وضعيف يتوقح متصلباً أمام المسجونىن فى
الأقفاص .

انظر أيها المليك الجبار ، انظر إلى هولاء المحيطين بسجنك الآن ،
تفرس في وجوههم تجد في ملامحهم ما كنت تراه في سحنات أدنى رعاياك
وأعوانك في مجاهل الصحراء فمنهم من يشبه الأرنب بضعف قلبه ومنهم
من يماثل الثعلب باحتياله ومنهم من يضارع الأفعى بخبثه ، ولكن ليس
بينهم من له سلامة الأرنب وذكاء الثعلب وحكمة الأفعى .

انظر فهذا كالخنزير قذارة أما لحمه فلا يؤكل ، وهذا كالجاسوس
خشونة أما جلده فلا ينفع . وذاك كالحمار غباوة ولكنه يمشى على
الائنتين . وذلك كالغراب شؤماً ولكنه يبيع نعيه في الهياكل . وتلك
كالطاووس تيباً وإعجاباً أما ريشها فمستعار .

وانظر أيها السلطان المهيب . انظر إلى تلك القصور والمعاهد ، فهي
أو كار ضيقة يسكنها الإنسان مفاخرأ بزخارف سقوفها التي تحجبه عن
النجوم مغتبطاً بصلاية جدرانها التي تفصله عن أشعة الشمس . هي
كهوف مظلمة تذبذب في ظلها أزاهر الشباب وترمد في زواياها جمرة
الحب وتتحول في فضائها رسوم الأحلام إلى أعمدة من دخان ، هي
سرادب غريبة يتمايل فيها سرير الطفل بجانب فراش المنازع وينتصب فيها
تحت العروس بقرب نعش الميت .

وانظر أيها الأسير الجليل انظر إلى تلك الشوارع المنفرجة والأزقة
الضيقة فهي أودية خطيرة المعابر يتربص للصوص بين منرجاتها وتخنيئ
الخوارج بين جنباتها ، هي ساحة قتال مستتب بين الرغائب ، والرغائب
تتنازل فيها الأرواح متضاربة ولكن بغير السيوف . وتتصارع متناهشة
ولكن بغير الأنياب : بل هي غابة الأهوال تسكنها حيوانات داجنة
(العواصف)

المظاهر ، معطرة الأذنان ، مصقولة القرون ، لا تقضى شرائعها ببقاء
الأنسب بل بدوام الأروغ والأحيل ولا تؤول تقاليدها إلى الأفضل
والأقوى بل إلى الأخبث والأكذب . أما ملوكها فليست أسداً نظيرك بل
هم مخاليق عجيبة لهم مناقد النسور وبرائن الضبع وألسنة العقارب ونقيق
الضفادع .

* * *

فدتك روحى أيها الملك السجين فقد أطلت الوقوف لديك وأسهب
بالكلام أمامك ولكن هو القلب المخلوع عن عرشه يتعزى بالملوك
المخلوعين وهى النفس السجينة المستوحشة تستأنس بالسجناء
والمستوحشين فساح فتى يلوك الكلام متسلماً به عن الطعام ويرتشف
الأفكار مستعيضاً بها عن الشراب .

إلى اللقاء أيها الجبار المهيب فإن لم يكن اللقاء فى هذا العالم الغريب
فسيكون فى عالم الأشباح حيث تجتمع أرواح الملوك بأرواح الشعراء .

يسوع المصلوب

« كتبت يوم الجمعة الحزينة »

اليوم وفي مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية من رقادها العميق وتقف أمام أشباح الأجيال ناظرة بعيون مغلقة بالدموع نحو جبل الجلجلة لترى يسوع الناصري معلقاً على خشبة الصليب .. وعندما تغيب الشمس عن مآقي النهار تعود الإنسانية وتركع مصلية أمام الأصنام المنتصبة على قمة كل رابية وفي سفح كل جبل .

اليوم تقود الذكرى أرواح المسيحيين من جميع أقطار العالم إلى جوار أورشليم فيقفون هناك صفوفاً قارعين صدورهم ، محدقين بشبح مكلل بالأشواك باسط ذراعيه أمام اللانهاية ، ناظر من وراء حجاب الموت إلى أعماق الحياة .. ولكن لا تسدل ستائر الليل على مسارح هذا النهار حتى يعود المسيحيون ويضطجعون جماعات جماعات في ظلال النسيان بين لحف الجهالة والخمول .

وفي مثل هذا اليوم من كل سنة يترك الفلاسفة كهوفهم المظلمة والمفكرون صوامعهم الباردة والشعراء أوديتهم الخيالية ويقفون جميعهم على جبل عال صامتين متهيئين مصغين إلى صوت فتى يقول لقاتليه : (يا أبته ، اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون) .. ولكن لا تكتنف السكينة أصوات النور حتى يعود الفلاسفة والمفكرون والشعراء ويكفنون

أرواحهم بصفحات الكتب البالية .

إن النساء المشغولات ببهجة الحياة المشغوفات بالحللى والخلل يخرجن اليوم من منازلهن يشاهدن المرأة الحزينة الواقفة أمام الصليب وقوف الشجرة اللينة أمام عواصف الشتاء ويقتربن منها ليسمعن أنينها العميق وغصاتها الأليمة .

أما الفتيان والصبايا الراكضون مع تيار الأيام إلى حيث لا يدرون فيقفون اليوم هنيئة ويلتفتون إلى الوراء ليروا الصبية المجدلية تغسل بدموعها قطرات الدماء عن قدمى رجل منتصب بين الأرض والسماء . ولكن عندما تمل عيونهم النظر إلى هذا المشهد يتحولون مسرعين ضاحكين .

فى مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية بيقظة الربيع وتقف باكية لأوجاع الناصرى ثم تطبق أجفانها وتنام نوماً عميقاً . أما الربيع فيظل مستيقظاً مبتسماً سائراً حتى يصير صيفاً مذهب الملابس معطر الأذيال .

الإنسانية امرأة يلذ لها البكاء والنحيب على أبطال الأجيال . ولو كانت الإنسانية رجلاً لفرحت بمجدهم وعظمتهم .

الإنسانية طفلة تقف متأوهة بجانب الطائر الذبيح ولكنها تخشى الوقوف أمام العاصفة الهائلة التى تمصر بمسيرها الأغصان اليابسة وتجرف بعزمها الأقدار المنتنة .

الإنسانية ترى يسوع الناصرى مولوداً كالفقراء عائشاً كالمساكين مهاناً كالضعفاء مصلوباً كالمجرمين فتبكيه وترثيه وتندبه وهذا كل ما تفعله

لتكريمه .

منذ تسعة عشر جيلاً والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع ،
ويسوع كان قوياً ولكنهم لا يفهمون معنى القوة الحقيقية .

ما عاش يسوع مسكيناً خائفاً ولم يمت شاكياً متوجعاً بل عاش ثائراً
وصلب متمرداً ومات جباراً .

لم يكن يسوع طائراً مكسور الجناحين بل كان عاصفة هوجاء تكسر
بهبوبها جميع الأجنحة المعوجة .

لم ينجى يسوع من وراء الشفق الأزرق ليجعل الألم رمزاً للحياة بل
جاء ليجعل الحياة رمزاً للحق والحرية .

لم يخف يسوع مضطهديه ولم يخش أعداءه ولم يتوجع أمام قاتليه بل
كان حراً على رؤوس الأشهاد جريماً أمام الظلم والاستبداد ، يرى البشور
الكرهية فيضعها ، ويسمع الشر متكلماً فيخرسه ، ويلتقى بالرياء
فيصرعه .

لم يهبط يسوع من دائرة النور الأعلى ليهدم المنازل ويبني من حجارتها
الأديرة والصوامع ويستهوى الرجال الأشداء ليقودهم قسوساً ورهباناً
بل جاء ليبيث في فضاء هذا العالم روحاً جديدة قوية تقوض قوائم العروش
المرفوعة على الجماجم وتهدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الأصنام
المنصوبة على أجساد الضعفاء المساكين .

لم ينجى يسوع ليعلم الناس بناء الكنائس الشاهقة والمعابد الضخمة في
جوار الأكواخ الحقيرة والمنازل الباردة المظلمة ، بل جاء ليجعل قلب
الإنسان هيكلاً ونفسه مذبحاً وعقله كاهناً .

هذا ما صنعه يسوع الناصري وهذه هي المبادئ التي صلب لأجلها
مختاراً ولو عقل البشر لوقفوا اليوم فرحين متهللين منشدين أهازيخ الغلبة
والانتصار .

* * *

وأنت أيها الجبار المصلوب ، الناظر من أعالي الجلجلة إلى مواكب
الأجيال السامع ضجيج الإنتم ، الفاهم أحلام الأبدية ، أنت على خشبة
الصليب المضرجة بالدماء أكثر جلالاً ومهابة من ألف ملك على ألف عرش في
ألف مملكة . بل أنت بين النزع والموت أشد هولاً وبطشاً من ألف قائد
في ألف جيش في ألف معركة .

أنت بكآبتك أشد فرحاً من الربيع بأزهاره . أنت بأوجاعك أهدأ
بالا من الملائكة بسماواتها ، وأنت بين الجلادين أكثر حرية من نور
الشمس .

إن إكليل الشوك على رأسك هو أجل وأجمل من تاج بهرام ، والمسمار
في كفك أسنى وأفخم من صولجان المشتري ، وقطرات الدماء على
قدميك أسنى لمعاناً من قلائد عشروت ، فساح هؤلاء الضعفاء الذين
ينوحون عليك لا يدرون كيف ينوحون على نفوسهم ، واغفر لهم لأنهم
لا يعلمون بأنك صرعت الموت بالموت ووهبت الحياة لمن في القبور .

على باب الهيكل

قد طهرت شفتى بالنار المقدسة لأتكلم عن الحب ولما فتحت شفتى للكلام وجدتنى أحرساً .

كنت أترنم بأغاني الحب قبل أن أعرفه ولما عرفته تحولت الألفاظ فى فمى إلى لهات ضئيل ، والأنغام فى صدرى إلى سكينه عميقة .

وكنتم أيها الناس فيما مضى تسألونى عن غرائب الحب وعجائبه ، فكنت أحدثكم وأقتعكم ، أما الآن وقد غمرنى الحب بوشاحه ، فجمت بدورى أسألكم عن مسالكة ومزايه فهل بينكم من يجيبنى ؟ جمت أسألكم عما بى وأستخبركم عن نفسى فهل بينكم من يستطيع أن يبين قلبى لقلبى ويوضح ذاتى لذاتى ؟

ألا فاجبرونى ما هذه الشعلة التى تتقد فى صدرى وتلتهم قواى وتذيب عواطفى وأميالى ؟

وما هذه الأيدى الحقيه الناعمة الخشنة التى تقبض على روحى فى ساعات الوحده والانفراد وتسكب فى كبدى خمرة ممزوجة بمرارة اللذه وحلاوة الأوجاع ؟

وما هذه الأجنحة التى ترفرف حول مضجعى فى سكينه الليل فأسهر متربقاً ما لا أعرفه مصغياً إلى ما لا أسمعه ، محذفاً بما لا أراه ، مفكراً بما

لا أفهمه ، شاعراً بما لا أدركه ، متأوهاً لأن في التأوه غصات أحب إليّ
من رنة الضحك والابتهاج ، مستسلماً إلى قوة غير منظورة تميّنتني
وتحيّنتني ثم تميّنتني وتحيّنتني حتى يطلع الفجر ويملأ النور زوايا غرفتي فأنا
إذ ذاك وبين أجفاني الذابلة ترتعش أشباح اليقظة وعلى فراشي الحجري
تتمايل خيالات الأحلام .

* * *

وما هذا الذي ندعوه حباً ؟
أخبروني ما هذا السر الخفي الكامن خلف الدهور المختبئ وراء
المرئيات ، الساكن في ضمير الوجود ؟
ما هذه الفكرة المطلقة التي تجيء سبباً لجميع النتائج وتأتى نتيجة
لجميع الأسباب ؟
ما هذه اليقظة التي تتناول الموت والحياة وتبتدع منها حلماً أغرب من
الحياة وأعمق من الموت ؟
أخبروني أيها الناس — أخبروني هل بينكم من لا يستيقظ من رقدة
الحياة إذا ملمس الحب روحه بأطراف أصابعه ؟
هل بينكم من لا يترك أباه وأمه ومسقط رأسه عندما تناديه الصبية التي
أحبها قلبه ؟

هل فيكم من لا يمخر البحر ويقطع الصخاري ويمجتاز الجبال والأودية
ليلتق بالمرأة التي اختارتها روحه ؟
أى فتى لا يتبع قلبه إلى أقاصى الأرض إذا ما كان له في أقاصى الأرض
حبيبة يستطيب نكهة أنفاسها ويستلطف ملامس يديها ويستعذب رنة

صوتها ؟

أى بشر لا يحرق نفسه بخوراً أمام إله يسمع ابتهاه ويستجيب

صلواته ؟

وقفت بالأمس على باب الهيكل أسأل العابرين عن خفايا الحب
ومزياها فمر أمامى كهل مهزول القامة كاسف الوجه وقال متأوهاً
« الحب ضعف فطرى ورثناه عن الإنسان الأول » .

ومررتى قوى الجسم مفتول الساعدين وقال مترنماً « الحب عزم يلازم
كياننا ويصل حاضرنا بماضى الأجيال ومستقبلها » .

ومرت امرأة كفيفة العينين وقالت متنهدة « الحب سم قتال تتنفسه
الأفاعى السوداء المتقلبة فى كهوف الجحيم فيسيل منتشراً فى الفضاء ثم
يهبط مغلفاً بقطرات الندى فترتشفه الأرواح الظائمة فتسكر دقيقة ثم
تصحوا عاماً ثم تموت دهرأ » .

ومرت صببية موردة الوجنتين وقالت مبتسمة « الحب كوثر تسكبه
عرائس الفجر فى الأرواح القوية فيجعلها إن تتعالى متجمدة أمام كواكب
الليل وتسبح مترنمة أمام شمس النهار » .

ومر رجل ذو ملابس سوداء ولحية مسترسلة وقال عابساً « الحب
جهالة عمياء تبتدىع بيدى الشباب وتنتهى بنهايته » .

ومر رجل ذو وجه صبوح وملاخ منفرجة وقال فرحاً « الحب معرفة
علوية تنير بصائرنا فنرى الأشياء كما يراها الآلهة » .

ومر أعمى يحس الأرض بعكازه وقال منتحباً « الحب ضباب كثيف

يكتنف النفس من كل ناحية ويحجب عنها رسوم الوجود أو يجعلها لا ترى سوى أشباح أميالها مرتعشة بين الصخور ولا تسمع غير صدى صراخها آتيا من خلایا الوادى .

ومر شاب يحمل قيثارة وقال منغما « الحب شعاع سحرى ينبثق من أعماق اللذات الحساسة وينير جنباتها فترى العالم موكباً سائراً فى مروج خضراء والحياة حلماً جميلاً منتصباً بين اليقظة واليقظة .

ومر هرم منحنى الظهر يجر قدميه كأنهما خرقتان وقال مرتعشاً « الحب راحة الجسم فى سكينه القبر وسلامة النفس فى أعماق الأبدية .

ومر طفل ابن خمس وهتف ضاحكاً « الحب أبى والحب أمى ولا يعرف الحب سوى أبى وأمى .

وانقضى النهار والناس يمرون أمام الهيكل وكل يصور نفسه متكلماً عن الحب ويوح بأمانيه معلناً سر الحياة .

ولما جاء المساء وسكنت حركة العابرين سمعت صوتاً آتياً من داخل الهيكل يقول « الحياة نصفان نصف متجلد ونصف ملتهب فالحب هو النصف المتهب .

فدخلت الهيكل إذ ذاك وسجدت راکعاً مبتهلاً مصلياً هاتفاً « اجعلنى يا رب طعاماً للهب — اجعلنى أيها الإله مأكلاً للنار المقدسة . آمين .

أيها الليل

- يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين .
- يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة .
- يا ليل الشوق والصبابة والتذكار .

أيها الجبار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد
سيف الرهبة ، المتوج بالقمر ، المتشح بثوب السكوت ، والناظر بألف
عين إلى أعماق الحياة ، المصغى بألف أذن إلى أنه الموت والعدم .
أنت ظلام يرينا أنوار السماء والنهار نوراً يغمرنا بظلمة الأرض .
أنت أمل يفتح بصائرنا أمام هيبة اللانهاية والنهار غرور يوقفنا
كالعميان في عالم المقاييس والكمية .
أنت هدوء يبيح بصمته خفايا الأرواح المستيقظة السائرة في الفضاء
العلوى ، والنهار ضجيج يثير بعوامله نفوس المنطرحين بين سنابك
المقاصد والرغائب .
أنت عادل يجمع بين جنحى الكرم أحلام الضعفاء بأمانى الأقوياء .
وأنت شفق يغمض بأصابعه الخفية أجفان التعساء ويحمل قلوبهم إلى
عالم أقل قساوة من هذا العالم .
بين طيات أثوابك الزرقاء يسكب المحبون أنفاسهم وعلى قدميك

المغلقتين بقطر الندى يهرق المستوحشون قطرات دموعهم ، وفي راحتك المعطرتين بطيب الأودية يضيّع الغرباء تهديدات شوقهم وحنينهم ، فأنت نديم المحبين وأنيس المستوحدين ورفيق الغرباء والمستوحشين .

في ظلالك تدب عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الأنبياء وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين ، فأنت ملقن الشعراء والموحى إلى الأنبياء والموعز إلى المفكرين والمتأملين .

* * *

عندما ملّت نفسي البشر وتعبت أجفاني من النظر إلى وجه النار سرت إلى تلك الحقول البعيدة حيث تهجع أشباح الأزمنة الغابرة .
هناك وقفت أمام كائن أقمم جامد مرتعش سائر بألف قدم فوق السهول والجبال والأودية .

هنالك أهدقت شاخصاً بعيون الدجى ، مصغياً لحفيف الأجنحة غير المنظورة شاعراً بملامس ملابس السكوت ، مستتبلاً أمام مخاوف الظلام .

هنالك رأيتك أيها الليل شبهاً هائلاً جميلاً منتصباً بين الأرض والسماء ، متشحاً بالسحاب ، منطلقاً بالضباب ضاحكاً من الشمس ساخراً بالنهار ، مستهزئاً بالعبيد الساهرين أمام الأصنام ، غاضباً على الملوك الراقدين فوق الحرير والديباج محملاً بوجوه اللصوص ، خافراً بقرب أسيرة الأطفال ، باكياً لا يتسام الساقطات مبتسماً لبكاء العشاق رافعاً بيمينك كبار القلوب ، ساحقاً بقدميك صغار النفوس .

هناك رأيتك أيها الليل ورأيتنى ، فكنت بهولك لى أباو كنت بأحلامى
لك ابناً ، فأزيمحت من بيننا ستائر الأشكال وتمزق من وجهينا نقاب الظن
والتخمين فأبجحت لى بإسراك ونواياك ، وأبنتُ لك أمانتى وآمالى حتى
إذا تحولت أهوالك إلى أنغام أعذب من همس الأزهار ، وتبدلت مخاوفى
بأنس أطيب من طمأنينة العصافير ، رفعتنى إليك ، وأجلستنى على
منكبيك ، وعلمت عيني النظر وعلمت أذنى السمع ، وعلمت شفتى
الكلام ، وعلمت قلبى محبة مالا يجبه الناس وكره مالا يكرهونه ، ثم
لمستُ بأناملك أفكارى فتدفقت أفكارى نهراً راكضاً متسرماً يجرف
الأعشاب الذابلة ثم قبلت بشفتيك روحى فتمايلت روحى شعلة متقدة
تلتهم الأنصاب اليابسة .

* * *

لقد صحبتك أيها الليل حتى صرتُ شبيهاً بك ، وألفتك حتى
تمازجتُ أميالى بأميالك ، وأحببتك حتى تحول وجدانى إلى صورة
مصغرة لوجودك ، ففى نفسى المظلمة كواكب متلمعة ينثرها الوجد
عند المساء وتلتقطها الهواجس فى الصباح . وفى قلبى الرقيب قمر يسعى
تارة فى فضاء متلبد بالغيوم وطوراً فى خلاء مفعم بمواكب الأحلام . وفى
روحي الساهرة سكينه تبيح بتفاعيلها سرائر المحبين وترجع خلاياها
صدى صلواة المتعبدين . وحول رأسى غلاف من السحر تمزقه حشرة
المنازعين ثم تحيطه أغاني المتشبين .

أنا مثلك أيها الليل وهل يحسبنى الناس مفاخرأ إذا ما تشبهت بك وهم
إذا تفاخروا يتشبهون بالنهار !

أنا مثلك وكلانا متهم بما ليس فيه .
أنا مثلك بأميالى وأحلامى وخلقى وأخلاقى .
أنا مثلك وإن لم يتوجنى المساء بغيومه الذهبية .
أنا مثلك وإن لم يرصع الصباح أذيالى بأشعته الوردية .
أنا مثلك وإن لم أكن ممنطقاً بالجمرة .
أنا ليل مسترسل منبسط هادئ مضطرب وليس لظلمتى بدء وليس
لأعماقى نهاية ، فإذا ما انتصبت الأرواح متباهية بنور أفراسها تتعالى
روحى متجمدة بظلام كآبتها .
أنا مثلك أيها الليل ولن يأتى صباحى حتى ينتهى أجلي .

الجنية الساحرة

إلى أين تسيرين بي أيتها الساحرة ؟
حتى مَ أتبعك على هذه الطريق الوعرة ، المنسابة بين الصخور ،
المفروشة بالأشواك ، المتصاعدة بأقدامنا نحو الأعلى ، الهابطة بنفسينا إلى
الأعماق ؟ .

قد تمسكت بأذيالك وسرت وراءك كطفل يلاحق أمه ، متناسياً ما بي
من الأحلام ، محمداً بما فيك من الجمال ، متعامياً عن مواكب الأشباح
المتطائرة حول رأسي ، مجذوباً بالقوة الخفية الكامنة في جسدك .
قفى بي هنيهة لأرى وجهك ، أنظري إليّ دقيقة لعلى أرى في عينيك
أسرار صدرك ، وأفهم من ملامحك مخبات نفسك .
قفى قليلاً أيتها الجنية فقد مللت المسير وارتعدت روحي من مخاوف
الطريق قفى فقد بلغنا ملتقى السبل حيث يعانق الموت الحياة ، ولن أسير
خطوة أخرى حتى تستعلنَ روحي نيات روحك ، ويستوضح قلبي
خزائن قلبك .

* * *

اسمعي أيتها الجنية الساحرة :
كنت بالأمس طائراً حراً أتنقل بين السواق وأسبح في الفضاء وأجلس

على أطراف الغصون عند المساء متأملاً بالقصور والهياكل في مدينة الغيوم
المتلونة التي تبقىها عند الأصيل وتهدمها قبل الغروب .

بلى كنت كالفكر أسير منفرداً في مشارق الأرض ومغاربها ، فرحا
بمحاسن الحياة ولذاتها ، مستقصياً خفايا الوجود وأسراره .

بل كنت كالحلم أسعى تحت جناح الليل وأدخل من شقوق النوافذ إلى
خدور العذارى النائمت وأتلاعب بعواطفهن . ثم أقف بجانب أسرة
الفتيان وأثير أمياهم ثم أجلس بقرب مضاجع الشيوخ وأستجلى
أفكارهم .

واليوم ، وقد لقيت أيتها الساحرة ، وتسمت بقبل يديك فقد
أصبحت مثل أسير أجر قيودي إلى حيث لا أدري ، بل لى صرت مثل
نشوان أستزيد من الخمر التي سلبتني إرادتي وألثم الكف التي صفعت
وجهي .

ولكن قفى قليلاً أيتها الساحرة فما قد استرجعت قواى وكسرت
القيود التي برت قدمى ، وسحقت الكأس التي شربت منها السم الذي
استطيطته . فماذا تريد أن تفعل وعلى أية طريق تريد أن نسير !

قد استردت حرى فهل ترضين لى رفيفاً حراً « ويجدق بوجه
الشمس بأجفان جامدة ويقبض على النار بأصابع غير مرتعشة ؟ » .

قد فتحت جناحى ثانية فهل تصحبين فتى يصرف الأيام متنقلاً
كالنسر بين الجبال ، ويقضى الليالى رابضاً كالأسد فى الصحراء ؟

هل تكتفين بحب رجل يتخذ الحب نديماً ويأباه سيداً ؟

هل تقنعين بشغف قلب يهيم ولا يستسلم ويشتعل ولكنه لا يذوب ؟

هل ترتاحين إلى أميال نفس ترتعش أمام العاصفة ولكنها لا تنهصر ،
وتثور مع الزوابع ولكنها لا تقتلع من مكانها ؟
هل ترضين بى صاحباً لا يستعبد ولا يُستعبد ؟
إذاً هذه يدي فهزيمها بيدك الجميلة . وهذا جسدي فضميه بذراعيك
الناعمتين وهذا فمي فقبله قبلة طويلة عميقة خرساء .

قبل الانتحار

في هذه الغرفة المنفردة الهادئة قد جلست بالأمس المرأة التي أحبها قلبي .
إلى هذه المساند الوردية الناعمة قد أَلقت رأسها الجميل ، ومن هذه
الكأس البلورية قد شربت جرعة من الخمر ، ممزوجة بقطرة من العطر .
كل ذلك قد كان بالأمس ، والأمس حلم لا يعود ، أما اليوم فقد
ذهبت المرأة التي أحبها قلبي إلى أرض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد
الخلو والنسيان .

إن آثار أصابع المرأة التي أحبها قلبي لم تزل ظاهرة على بلور مرآتي ،
وعطر أنفاسها ما برح متضوعاً بين طيات أثوابي ، وصدى صوتها لم
يضمحل بعد من زوايا منزلي — ولكن المرأة نفسها — المرأة التي أحبها
قلبي قد رحلت إلى مكان قصي يدعى وادي الهجر والسلوان. أما آثار
أصابعها وعطر لهاثها وأشباح روحها فستبقى في هذه الغرفة حتى صباح الغد
وعند ذلك أفتح نوافذ منزلي لتدخل أمواج الهواء وتجرف بتيارها كل
ما تركته لي تلك الساحرة الحسنة .

إن رسم المرأة التي أحبها قلبي لم يزل معلقاً بجانب مضجعي ، ورسائل
الحب التي بعثت بها إليّ ما برحت في العلبة الفضية المرصعة بالعقيق
والمرجان ، وذؤابة الشعر الذهبية التي حبتني بها تذكراً لم تخرج قط من

الغلاف الحريرى المبطن بالمسك والبخور — جميع هذه الأشياء ستبقى فى أماكنها حتى الصبح — وعند مجئ الصباح أفتح نوافذ منزلى ليدخل الهواء ويحملها إلى ظلمة العدم إلى حيث تقطن السكينة الخرساء .

إن المرأة التى أحبها قلبى شبيهة بالنساء اللواتى أحبتهن قلوبكم أيها الفتيان . هى مخلوقة عجيبة صنعتها الآلهة من وداعة الحمامة وتقلبات الأفعى وتيه الطاووس وشراسة الذئب وجمال الوردة البيضاء وهول الليلة السوداء مع قبضة من الرماد وغرفة من زبد البحر .

وقد عرفت المرأة التى أحبها قلبى أيام الطفولة فكنت أركض وراءها فى الحقول وأتمسك بأذيالها فى الشوارع .

وعرفت أيام الصبا فكنت أرى خيال وجهها فى وجوه الكتب والأسفار وأشاهد خطوط قامتها بين غيوم المساء وأسمع نغمة صوتها متصاعدة مع خرير السواقى .

وعرفت أيام الرجولة فكنت أجالسها محدثاً وأسألها مستفتياً وأقترب منها شاكياً ما فى قلبى من الأوجاع باسطاً ما فى روحى من الأسرار . كل ذلك كان بالأمس والأمس حلم لا يعود أما اليوم فقد ذهبت تلك المرأة إلى أرض بعيدة خالية مقفرة باردة تدعى بلاد الخلو والنسيان .

أما اسم المرأة التى أحبها قلبى فهو الحياة .
فالحياة امرأة ساحرة حسناء تستهوى قلوبنا ، وتستغوى أرواحنا ،
وتغمر وجداننا بالوعود ، فإن أمطلت أماتت فينا الصبر وإن أبرت

أيقظت فينا الملل .

- الحياة امرأة تستحم بدموع عشاقها وتتعطر بدماء قتلاها .
- الحياة امرأة ترتدى الأيام البيضاء المبطنة بالليالي السوداء .
- الحياة امرأة ترضى بالقلب البشرى خليلا وتأباه خليلا .
- الحياة امرأة عاهرة ولكنها جميلة ومن ير عهرها يكره جمالها .

يابنى أمى

ماذا تريدون منى يابنى أمى ؟
أتريدون أن أبنى لكم من المواعيد الفارغة قصوراً مزخرفة بالكلام
وهياكل مسقوفة بالأحلام أم تريدون أن أهدم ما بناه الكاذبون والجبنةاء
وأنقض مارفعه المراءون والخبنةاء ؟

ماذا تريدون أن أفعل يابنى أمى ؟
أأهدل كالحمام لأرضيكم أو أزجر كالأسد لأرضى نفسى ؟
قد غنيت لكم فلم ترقصوا ونحت أمامكم فلم تبكوا فهل تريدون أن
أترنم وأنوح فى وقت واحد ؟

نفوسكم تتلوى جوعاً وخبز المعرفة أوفر من حجارة الأودية ولكنكم
لاتأكلون وقلوبكم تحتلج عطشاً ومناهل الحياة تجرى كالسواقى حول
منازلكم فلماذا لاتشربون ؟

للبحر مد وجزر ، وللقمر نقص وكال ، وللزم من صيف وشتاء. أما
الحق فلا يحول ولا يزول ولا يتغير فلماذا تحاولون تشويه وجه الحق ؟
ناديتكم فى سكىنة الليل لأريكم جمال البدر وهىة الكواكب فهبتم
من مضاجعكم مذعورين وقبضتم على سيوفكم ورماحكم صارخين
« أين العدو لنصرعه ؟ » وعند الصباح وقد جاء العدو بخيله ورجله

ناديتكم فلم تهبوا من رقادكم بل ظللتم تغالبون مواكب الأحلام .
قلت لكم : تعالوا نصعد إلى قمة الجبل لأريكم ممالك العالم فأجبتهم
قائلين « في أعماق هذا الوادي عاش آباؤنا وجدودنا وفي ظلاله ماتوا وفي
كهوفه قُبروا فكيف نتركه ونذهب إلى حيث لم يذهبوا ؟ » .
قلت لكم : هلموا نذهب إلى السهول لأريكم مناجم الذهب وكنوز
الأرض فأجبتهم قائلين « في السهول تربض اللصوص وقطاع الطرق » .
قلت : تعالوا نذهب إلى الساحل حيث يعطى البحر خيراته فأجبتهم
قائلين « ضجيج اللجة يخيف أرواحنا وهوى الأعماق يميت أجسادنا » .

* * *

لقد كنت أحبكم يا بني أُمى وقد أضربى الحب ولم ينفعكم . واليوم
صرت أكرهكم والكراهة سبيل لا يجرف غير القضبان اليابسة ولا يهدم
سوى المنازل المتداعية .

كنت أشفق على ضعفكم يا بني أُمى والشفقة تكثر الضعفاء وتنمى
عدد المتوانين ولا تجدى الحياة شيئاً . واليوم صرت أرى ضعفكم فترتعش
نفسى اشمئزاً وتنقبض ازدراء .

كنت أبكى على ذلكم وانكساركم وكانت دموعى تجرى صافية
كالبثور ولكنها لم تغسل أدرانكم الكثيفة بل أزال الغشاء عن عيني ولا
بللت صدوركم المتحجرة بل أذابت الجزع في قلبي — واليوم صرت
أضحك من أوجاعكم والضحك رعود قاصفة تجيء قبل العاصفة ولا تأتى
بعدها .

ماذا تريدون منى يا بني أُمى ؟

أتريدون أن أريكم أشباح وجوهكم في أحواض المياه الهادئة ؟ تعالوا
إذن وانظروا ما أقبح ملامحكم .

هلموا وتأملوا فقد جعل الخوف شعور رؤوسكم كالرماد ، وعرك
السهر عيونكم فأصبحت كالحفر المظلمة ، ولمست الجبانة خدودكم
فبانث كالحرق المتجمدة ، وقبل الموت شفاهكم فأمست صفراء
كأوراق الخريف .

ماذا تطلبون منى يا بنى أمى — بل ماذا تطلبون من الحياة والحياة لم
تعد تحسبكم من أبنائها ؟ .

أرواحكم تنتفض في مقابض الكهان والمشعوذين وأجسادكم ترتجف
بين أنياب الطغاة والسفاحين وبلادكم ترتعش تحت أقدام الأعداء
والفاتحين . فماذا ترجون من وقوفكم أمام وجه الشمس ؟

سيوفكم مغلفة بالصداء ورماحكم مكسورة الحراب وتروسكم
مغمورة بالتراب فلماذا تقفون في ساحة الحرب والقتال ؟ .

دينكم رياء ودنياكم ادعاء وآخرتكم هباء فلماذا تحيون والموت راحة
الأشقياء ؟

إنما الحياة عزم يرافق الشبيبة وجد يلاحق الكهولة وحكمة تتبع
الشيخوخة ، أما أنتم يا بنى أمى فقد ولدتم شيوخا عاجزين ثم صغرت
رؤوسكم وتقلصت جلودكم فصرتم أطفالا تتقلبون على الأوحال
وتترامون بالحجارة .

إنما الإنسانية نهر بلورى يسير متدفقاً مترنماً حاملاً أسرار الجبال إلى

أعماق البحر . أما أنتم يا بني أمى فمستنقعات خبيثة تدب الحشرات في
أعماقها وتتلوى الأفاعى على جنباتها .

إنما النفس شعلة زرقاء متقدة مقدسة تلتهم الهشيم وتنمو بالأنواء وتنير
أوجه الآلهة — أما نفوسكم يا بني أمى فرماد تدرىه الرياح على الثلوج
وتبدده العواصف فى الأودية .

أنا أكرهكم يا بني أمى لأنكم تكرمون المجد والعظمة .
أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم .
أنا عدوكم لأنكم أعداء الآلهة ولكنكم لاتعلمون !! .

نحن وأنتم

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرات .
نحن أبناء الكآبة ، والكآبة ظل إله لا يسكن في جوار القلوب
الشريرة . نحن ذوو النفوس الحزينة والحزن كبير لا تساعه النفوس
الصغيرة . نحن نبكى ونتحب أيها الضاحكون ومن يغتسل بدموعه مرة
يظل نقياً إلى نهاية الدهور .

أنتم لاتعرفوننا أما نحن فنعرفكم . أنتم سائرون بسرعة مع تيار نهر
الحياة فلا تلتفتون نحونا أما نحن فجالسون على الشاطئ نراكم ونسمعكم .
أنتم لاتعون صراخنا لأن ضجيج الأيام يملأ أذانكم ، أما نحن فنسمع
أغانيكم لأن همس الليالي قد فتح مسامعنا . نحن نراكم لأنكم واقفون في
النور المظلم أما أنتم فلا تروننا لأننا جالسون في الظلمة المنيرة .

نحن أبناء الكآبة . نحن الأنبياء والشعراء والموسيقيون . نحن نحوك من
خيوط قلوبنا ملابس الآلهة فتملاً بحبات صدورنا حفنات الملائكة
وأنتم — أنتم أبناء غفلات المسرات ويقظات الملامى — أنتم تضعون
قلوبكم بين أيدي الخلو لأن أصابع الخلو لينة الملامس وترتاحون بقرب
الجهالة لأن بيت الجهالة خال من مرآة ترون فيها وجوهكم . نحن نتهد
ومع تهداتنا يتصاعد همس الزهور وحفيف الغصون وخرير السواقي أما

أنتم فتضحكون وقهقهة ضحككم تمتزج بسحيق الجماجم وحرقة القيود وعويل الهاوية .

نحن نبكى ودموعنا تنسكب في قلب الحياة مثلما يتساقط الندى من أجفان الليل في كبد الصباح . أما أنتم فتبتسمون ومن جوانب أفواهكم المتبسمة تنهرق السخرية مثلما يسيل سم الأفعى على جرح المسوع .

نحن نبكى لأننا نرى تعاسة الأرملة وشقاء اليتيم وأنتم تضحكون لأنكم لاترون غير لمعان الذهب ، نحن نبكى لأننا نسمع أنه الفقير وصراخ المظلوم وأنتم تضحكون لأنكم لاتسمعون سوى رنة الأقداح ، نحن نبكى لأن أرواحنا منفصلة بالأجساد عن الله وأنتم تضحكون لأن أجسادكم تلتصق مرتاحة بالتراب .

* * *

نحن أبناء الكآبة وأنتم أبناء المسرات فهلموا نضع مآقي كآبتنا وأعمال مسراتكم أمام وجه الشمس .

أنتم بنيتم الأهرام من جماجم العبيد والأهرام جالسة الآن على الرمال تحدث الأجيال عن خلودنا وفنائكم ، ونحن هدمنا الباستيل بسواعد الأحرار والباستيل لفظة ترددها الأمم فتباركنا وتلعنكم . أنتم رفعتم حدائق بابل فوق هياكل الضعفاء وأقمتم قصور نينوى فوق مدافن البؤساء وها قد أصبحت بابل ونيوى نظير آثار أخفاف الإبل على رمال الصحراء . أما نحن فقد نحتنا تمثال عشتروت من الرخام فجعلنا الرخام يرتعش جامداً ويتكلم صامتاً وضربنا النهاوند على الأوتار فاستحضرت الأوتار أرواح المحبين الجائمة في الفضاء ، ورسمنا مريم بالخطوط والألوان .

فغدت الخطوط كأفكار الآلهة والألوان كعواطف الملائكة .
أنتم تتبعون الملامى وأظافر الملامى مزقت ألف ألف من الشهداء في
مراسح رومية وأنطاكية ، ونحن نلاحق السكينة وأصابع السكينة
نسجت الإلياذة وسيفر أيوب والثائية الكبرى . أنتم تضاجعون الشهوات
وعواصف الشهوات جرفت ألف موكب من أرواح النساء إلى هاوية
العار والفجور ، ونحن نعائق الوحدة وفي ظلال الوحدة تجسمت
المعلقات ورواية هملت وقصيدة دانتي . أنتم تسامرون المطامع وأسياف
المطامع أجرت ألف نهر من الدماء ، ونحن نرافق الخيال وأيدى الخيال أنزلت
المعرفة من دائرة النور الأعلى .

نحن أبناء الكآبة وأنتم أولاد المسرات ، وبين كآبتنا وسروركم عقبات
صعبة لمسالك ضيقة المعابر لاجتيازها خيولكم المظهمة ولا تسير عليها
مركباتكم الجميلة .

نحن نشفق على صغارتكم وأنتم تكرهون عظمتنا ، وبين شفقتنا
وكرهكم يقف الزمان محتاراً بنا وبكم .

نحن ندنو منكم كالأصدقاء وأنتم تهاجمونا كالأعداء ، وبين الصداقة
والعداوة هوة عميقة مملوءة بالدموع والدماء .

نحن نبني لكم القصور وأنتم تحفرون لنا القبور ، وبين جمال القصر
وظلمة القبر تسير الإنسانية بأقدام من حديد .

نحن نفرش سبلكم بالورود وأنتم تغمرون مضاجعنا بالأشواك، وبين
أوراق الوردة وأشواكها تنام الحقيقة نوماً عميقاً أبدياً .

منذ البدء وأنتم تصارعون قوانا اللينة بضعفكم الخشن .. تغلبونا

ساعة فتضجون فرحين كالضفادع ، ونغلبكم دهرأ ونظلم صامتين كالجبابرة . قد صلبتم الناصري ووقفتم حوله تسخرون به وتجدفون عليه ، ولكن لما انقضت تلك الساعة نزل من عن صليبه وسار كالجبال يتغلب على الأجيال بالروح والحق ويملأ الأرض بمجده وجماله .

قد سمتم سقراط ورجتم بولس وقتلتم غليلو وفتكتم بعلي بن أبي طالب وخنقتم مدحت باشا ، وهؤلاء يميون الآن كالأبطال الظافرين أمام وجه الأبدية . أما أنتم فتعيشون في ذاكرة الإنسانية كجثث فوق التراب لاتجد من يدفنها في ظلمة النسيان والعدم .

نحن أبناء الكآبة والكآبة غيوم تمطر العالم خيراً ومعرفة ، وأنتم أبناء المسرات ومهما تعالت مسراتكم فهي كأعمدة الدخان تهدمها الرياح وتبدها العناصر .

أبناء الآلهة وأحفاد القروء

ما أغرب الدهر وما أغربنا ! فقد تغير الدهر وغيرنا وسار إلى الأمام
وسيرنا ، وأسفر عن وجهه فأذهلنا وفرحنا .

كنا بالأمس نشكو الدهر ونخشاه فأصبحنا اليوم نصحبه ونهواه ، بل
صبرنا ندرك مقاصده وسجاياه ونفهم أسراره وخفاياه .

بالأمس كنا ندب متحذرين كالأشباح المرتعشة بين أهوال الليل
ومخاوف النهار ، فأصبحنا اليوم نسير متحمسين نحو أم الجبال حيث
تكمن العواصف الشديدة وتتولد البروق اللامعة والرعود القاصفة .

كنا بالأمس نأكل الخبز معجوناً بالدماء ونشرب الماء ممزوجاً
بالدموع ، فصرنا اليوم نتناول المن من أيدي عرائس الصباح ونرشف
الخمر معطرة بأنفاس الربيع .

بالأمس كنا العوبة في يد القضاء وكان القضاء جباراً ثملاً يتلوى بنا إلى
اليمين وإلى اليسار ، أما اليوم فقد صحا القضاء من سكره فأصبحنا نلاعبه
فيلعب ونداعبه فيضحك ثم نقوده ورائنا فينقاد .

كنا بالأمس نحرق البخور أمام الأصنام وننحر الضحايا أمام الآلهة
الغضوبة ، أما اليوم فصرنا لانحرق بخوراً إلا لنفوسنا ولا نقدم ذبيحة لغير
ذواتنا لأن أعظم الآلهة وأبهاهم جمالا قد جعل هيكله في صدورنا .

بالأمس كنا نخضع للملوك ونلوى رقابنا أمام السلاطين ، أما اليوم
فصرنا لانحنى إلا للحق ولا نتبع غير الجمال ولا نطيع سوى الحجة .
كنا بالأمس نخشع أبصارنا أمام الكهان ونتهب رؤيا العرافين ، أما
اليوم وقد تغير الدهر وغيرنا فأصبحنا لانحدق في غير وجه الشمس ولا
نصغى إلا لنغمة البحر ولا نهتز إلا مع الزوابع .
بالأمس كنا نهدم عروش نفوسنا لنبنى من قوائمها قبوراً لأجدادنا ،
أما اليوم فقد تحولت نفوسنا مذابح مقدسة لاتدنو منها أشباح القرون
الغابرة ولا تلامسها أصابع الأموات البالية .
كنا فكراً صامتاً مختبئاً في زوايا النسيان ، فأصبحنا صوتاً صارخاً
ترتجف له أعماق القضاة .
كنا شرارة ضئيلة مكتنفة بالرماد ، فصرنا ناراً متقدة فوق أكتاف
الأودية .

وكم سهرنا الليالي متوسدين التراب ملتحفين بالثلوج باكين على إلف
ورزق فقدناه . وكم صرفنا الأيام رابضين كنعاج لا راعى لها نقضم
أفكارنا ونلوك عواطفنا ونظل جائعين ظامئين . وكم وقفنا بين نهار زائل
ومساءات ، نائحين على شباب ذابل مشتاقين إلى من لا نعرفه
مستوحشين لأسباب نجهلها محققين بفضاء خال مظلم ، مصغين إلى أنة
السكون والعدم .

تلك أجيال مرت مرور الذئاب الخاطفة بين المدافن ، أما اليوم وقد
صحا الفضاء وصحونا ، فصرنا نقضى الليالي البيضاء على أسرة علوية ،

مساهرين الخيال ، مسامرين الفكر ، معانقين الأميال ، تتمايل حولنا
شعلات النار فنقبض عليها بأصابع غير مرتعشة ، وتتصاعد حولنا أرواح
الجن فنخاطبها بلغة غير ملتبسة ، وتمر بنا أجواق الملائكة فنستهويها بشوق
قلوبنا ونسكرها بنغمة أرواحنا .

كنا بالأمس وأصبحنا اليوم ، وهذه مشيئة الآلهة بأبناء الآلهة ، فما
هى إرادتكم يا أبناء القرود ؟

هل سرتم خطوة واحدة إلى الأمام منذ انبثقت من شقوق الأرض ، أم
رفعتم أبصاركم نحو الأعلى منذ فتحت الشياطين أبصاركم ؟ أم تلفظتم
بكلمة من سفر الحق منذ قبلت أفواه الأفاعى أفواهكم ؟ أم أصغيتم هنيهة
لأغنية الحياة منذ أغلق الموت آذانكم ؟

منذ سبعين ألف سنة مررت بكم فرأيتكم تتقلبون كالحشرات في
زوايا الكهوف . ومنذ سبع دقائق نظرت وراء بلور نافذتى فوجدتكم
تسيرون فى الأزقة القذرة ، وأبالسة الخمول تقودكم ، وقيود العبودية
تتمسك بأقدامكم ، وأجنحة الموت تصفق فوق رؤوسكم . فأنتم اليوم
كما كنتم وستظلون غداً وبعده مثلما رأيتم فى البدء .

كنا بالأمس فأصبحنا اليوم ، وهذا ناموس الآلهة بأبناء الآلهة فما هى
سنة القرود بكم يا أبناء القرود ؟

بين ليل وصباح

- اسكت يا قلبي فالفضاء لا يسمعك .
اسكت فالأثير المثقل بالنواح والعيول لن يحمل أغانيك وأناشيدك .
اسكت فأشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك ومواكب الظلام
لاتقف أمام أحلامك .
اسكت يا قلبي ، اسكت حتى الصباح ، فمن يترقب الصباح صابراً
يلاقى الصباح قوياً . ومن يهوى النور فالنور يهواه .
اسكت يا قلبي واسمعي متكلماً .
في الحلم رأيت شحوراً يغرد فوق فوهة بركان نائر .
ورأيت زنبقة ترفع رأسها فوق الثلوج .
ورأيت حورية عارية ترقص بين القبور .
ورأيت طفلاً يلعب بالجماجم وهو يضحك .
رأيت جميع هذه الصور في الحلم ولما استيقظت ونظرت إلى حولى
رأيت البركان هائجاً ، ولكنى لم أسمع الشحور مغرداً ولا رأيت مرفرفاً .
ورأيت الفضاء ينثر الثلوج على الحقول والأودية ، ساتراً بأكفانه
البيضاء أجسام الزنابق الهامدة .
ورأيت القبور صفوفاً منتصبية أمام سكينه الدهور ، وليس بينها من

يتأيل راقصاً ولا من يجثو مصلياً .

ورأيت رابية من الجماجم وليس هناك من ضاحك سوى الريح .
في اليقظة رأيت الحزن والأسى فأين ذهبت أفراح الحلم ومسراته ؟
أننى توارت بهجة المنام وكيف اضمحلت رسومه ؟ وكيف تتجلد
النفس حتى يعيد النوم أشباح أمانيتها وآمالها ؟
أصغ يا قلبي واسمعي متكلماً .

كانت نفسى بالأمس شجرة قوية مسنة تمتد عروقها إلى أعماق
الأرض وتتعالى غصونها نحو اللانهاية .

ولقد أزهرت نفسى في الربيع وأثمرت في الصيف ، ولما جاء الخريف
جمعت أثمارها في أطباق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق فكان
العابرون يتناولون منها ويأكلون ثم يسرون في سبيلهم .

ولما انقضى الخريف وتحولت تهاليله إلى الندب واللولولة نظرت فلم أر
في أطباقى سوى ثمرة واحدة أبقاها الناس لى ، فتناولتها وأكلتها . فألفيتها
كالعقم ، حامضة كالحصرم . فقلت لنفسي : « ويحى لقد وضعت في
أفواه الناس لعنة ، وفي أجوافهم عداء . فماذا ترى فعلت يانفسى
بالخللاوة التى امتصتها عروقك من أحشاء الأرض ، وبالأريج الذى
تشربته قضبانك من نور الشمس ؟ » .

بعد ذلك اقتلعت شجرة نفسى القوية المسنة .

اقتلعتها بعروقها من التربة التى نمت فيها وترعرعت ، اقتلعتها من
ماضيها ونزعت عنها ذكرى ألف ربيع وألف خريف .
وعدت فزرعت شجرة نفسى في مكان آخر .

(العواصف)

زرعتها في حقل بعيد عن سبل الزمن . وكنت أسهر بجانبها قائلاً إن
السهر يدنيننا من النجوم . وكنت اسقيها بدمي ودموعى قائلاً إن في الدم
نكهة ، وفي الدموع حلاوة . ولما عاد الربيع أزهرت نفسى ثانية .
وفي الصيف أثمرت نفسى . ولما جاء الخريف جمعت أثمارها الناضجة
بأطباق من الذهب ووضعتها على ملتقى السبل . فمر الناس أفراداً
وجماعات ولكن لم يمد أحد يده ليتناول منها .
فأخذت إذ ذاك ثمرة وأكلت ، فوجدتها حلوة كالشهد ، لذينة
كالكوثر ، طيبة كالخمرة البابلية ، عطرة كأنفاس الياسمين . فصرخت
قائلاً : « إن الناس لا يريدون البركة في أفواههم ولا الحق في أجوافهم ،
لأن البركة ابنة الدموع ، والحق ابن الدماء » .
ثم عدت وجلست في ظل شجرة نفسى المنفردة في حقل بعيد عن
سبل الزمن .

* * *

اسكت يا قلبي حتى الصباح .
اسكت ، فالقضاء قد أتمخمته رائحة الأشلاء فلن يتشرب أنفاسك .
أصغ يا قلبي واسمعي متكلماً .
كانت بالأمس فكرتى سفينة تتقلب بين أمواج البحار وتتنقل مع
الأهواء من شاطئ إلى شاطئ .
ولقد كانت سفينة فكرتى خالية إلا من سبعة أكواب طافحة بألوان
مختلفة تشابه ألوان قوس القزح بنضارتها .
وجاء زمن مللت فيه التنقل على وجه البحار فقلت سأعود بسفينة

فكرتني الفارغة إلى ميناء البلد الذي ولدت فيه .

ثم أخذت أطلّ جوانب سفينتي بألوان صفراء كشمس المغيب ، وخضراء كقلب الربيع ، وزرقاء ككبد السماء ، وحمراء كذئب الشقيق ، وأرسم على شراعها ودفنها رسوماً غريبة تجذب العين ، وتبهج البصيرة ولما انتهيت من عملي وقد ظهرت سفينة فكرتني كرؤيا نبي تطوف بين اللانهايتين ، البحر والسماء ، دخلت ميناء بلدي فخرج الناس لملاقاتي بالتهليل والتعظيم ، وأدخلوني المدينة ضارين الدفوف ، نافخين الزمور . فعلوا ذلك لأن خارج سفينتي كان مزخرفاً بهجاً ولم يدخل أحد جوف سفينة فكرتني .

ولم يسأل أحد ماذا جلبت فيها من وراء البحار ؟

ولم يدر أحد أني عدت بها فارغة إلى الميناء .

عند ذلك قلت في سرى : « لقد ضللت الناس . وبسبعة أكواب من

الألوان قد كذبت على باصرتهم وبصائرهم .

وبعد عام ركبت سفينة فكرتني وأبحرت ثانية .

سرت إلى جزر الشرق فجمعت منها المر واللبان والند والصندل

وأدخلتها إلى سفينتي .

وإلى جزر الجنوب فجلبت منها التبر والعاج والياقوت والزمرد وجميع

الحجارة الكريمة .

وإلى جزر الشمال فعدت منها بالخز والوشى والبرقيز .

وإلى جزر الجنوب فحملت منها الدروع المزودة والسيوف المشرقية

والرماح السمهرية وسائر أنواع الأسلحة .

ملأت سفينة فكرتي بنفائس الأرض وغرائبها وعدت إلى ميناء بلدى
قائلا : سوف يمجدىنى قومى ، ولكن عن جدارة . وسيدخلونى المدينة
منشدين مزميرين ولكن عن استحقاق .

ولكن لما بلغت الميناء لم يخرج أحد لملاقاى ، ودخلت شوارع بلدى
فلم يلتفت لى أحد .

ووقفت فى ساحتها معلناً للناس ما جلبت لهم من ثمار الأرض
وطرائفها فكانوا ينظرون لى والضحك ملء أفواههم والسخرية على
وجوههم ثم يتحولون عنى .

فعدت إلى الميناء كئيباً مستغرباً . ولكننى ما لحت سفينتى حتى فطنت
لأمر كنت مشغولاً عنه بمنازع أسفارى ورغائبها . فهتفت قائلاً : « إن
أمواج البحار قد محت الطلاء من جوانب سفينتى فبان كهيكل من
عظام ، وعفت الأرياح والأنواء وحرارة الشمس الرسوم عن شرائعها
فظهرت كأثواب رمادية بالية .

لقد جمعت طرائف الأرض ونفائسها فى تابوت يعوم على وجه الماء
وعدت إلى قومى فنبذونى لأن عيونهم لا ترى سوى المظاهر الخارجية .
فى تلك الساعة تركت سفينة فكرتى وذهبت إلى مدينة الأموات
وجلست بين القبور المكلسة مفكراً بأسرارها .

اسكت يا قلبى حتى الصباح . اسكت فالعاصفة الهوجاء تسخر
بهمس أعمالك ، وكهوف الوادى لن ترجع بصداها رنات أوتارك .
اسكت يا قلبى حتى الصباح . فمن يترقب الصباح متجلداً يعانقه
الصباح مشتاقاً .

ها قد طلع الفجر يا قلبي فتكلم إن كنت تستطيع الكلام .
هو ذا موكب الصباح يا قلبي فهل أبقى سكوت الليل في أعماقك
أغنية تلاقى بها الصباح ؟
هو ذا أسراب الحمام والشحارير تتطاير في أطراف الوادي ، فهل
أبقى هول الليل في جنحيك صلابة لتطير معها ؟
هو ذا الرعيان يسرون أمام قطعانهم من الحظائر والمرابض فهل أبقى
لك أشباح الليل عزماً لتسير وراءها إلى المروج الخضراء ؟
هو ذا الفتيان والصبايا يمشون الهويناء نحو الكروم فهلاً نهضت ومشيت
معهم ؟ قم يا قلبي . قم وسر مع الفجر فالليل قد مضى . وخاوف الليل
قد اضمحلت مع أحلامه السوداء .
قم يا قلبي وارفع صوتك مترغماً فمن لا يشارك الصبح بأغانيه كان من
أبناء الظلام .

المخدرات والمباضع

« هو متطرف بمبادئه حتى الجنون » .

« هو خيالي يكتب ليفسد أخلاق الناشئة » .

« لو اتبع الرجال والنساء المتزوجون وغير المتزوجين آراء
جبران في الزواج لتقوضت أركان العائلة وانهدمت مباني
الجامعة البشرية وأصبح هذا العالم جحيما وسكانه شياطين » .
« قهراً عما في أسلوبه الكتابي من الجمال فهو من أعداء
الإنسانية » .

« هو فوضوى كافر ملحد ونحن ننصح لسكان هذا الجبل
المبارك بأن ينبذوا تعاليمه ويحرقوا مؤلفاته لئلا يعلق منها شيء على
نفوسهم » .

« قد قرأنا له الأجنحة المتكسرة فوجدناها السم في
الدم » .

هذا بعض ما يقوله الناس عنى وهم مصيبون ، فأنا متطرف حتى
الجنون ، أميل إلى الهدم ميلى إلى البناء ، وفى قلبى كره لما يقدهه الناس
وحب لما يأبونه ، ولو كان بإمكانى استئصال عوائد البشر وعقائدهم

وتقاليدهم. لما ترددت دقيقة . أما قول بعضهم إن كتاباتي « سم في دسم » فكلام يبين الحقيقة من وراء نقاب كثيف ، فالحقيقة العارية هي أنني لأمزج « السم » بالدسم بل أسكبه صيفاً .. غير أنني أسكبه في كؤوس نظيفة شفافة .

أما الذين يعتذرون عنى أمام نفوسهم قائلين « هو خيالي يسبح مرفرفاً بين الغيوم » فهم الذين يحدقون بلمعان تلك الكؤوس الشفافة منصرفين عما في داخلها من الشراب الذى يدعونه « سماً » لأن معدهم الضعيفة لاتهضمه .

قد تدل هذه التوطئة على الوقاحة الخشنة ، ولكن أليست الوقاحة بخشونتها أفضل من الخيانة بنعومتها ؟ إن الوقاحة تظهر نفسها بنفسها أما الخيانة فترتدى بملابس فصلت لغيرها .

يطلب الشرقيون من الكاتب أن يكون كالنحلة التى تطوف مرفرفة فى الحقول جامعة حلاوة الأزهار لتصنع أقراصاً من العسل . إن الشرقيين يحبون العسل ولا يستطيعون سواه مأكلاً . وقد أفرطوا بالتهامة حتى تحولت نفوسهم إلى عسل تسيل أمام النار ولا تتجمد إلا إذا وضعت على الثلج .

ويطلب الشرقيون من الشاعر أن يحرق نفسه بخوراً أمام سلاطينهم وحكامهم وبطاركتهم . وقد تلبد فضاء الشرق بغيوم البخور المتصاعدة من جوانب العروش والمذابح والمقابر ولكنهم لا يكتفون . ففى أيامنا هذه مداحون يضارعون المتنبى ، وراثون يضاؤون الخنساء ، ومهنتون أكثر طلاوة من صفى الدين الحلى .

ويطلب الشرقيون من العالم أن يبحث في تاريخ آباؤهم وجدودهم ،
متمعماً بدرس آثارهم وعوائلهم وتقاليدهم صارفاً أيامه ولياليه بين
مطلوبات لغاتهم واشتقاقات ألفاظهم ومباني معانيهم وبياناتهم وبديعهم .
ويطلب الشرقيون من المفكر أن يعيد على مسامعهم ما قاله بيدبا وابن
رشد وإفرايم السرياني ويوحنا الدمشقي ، وأن لا يتعدى بكتاباتة حدود
الوعظ البليد والإرشاد السقيم وما يجئ بينهما من الحكم والآيات التي إذا
ما تمشى عليها الفرد كانت حياته كالأعشاب الضئيلة التي تنبت في الظل ،
ونفسه كالماء الفاتر المزوج بقليل من الأفيون .

وبالاختصار فالشرقيون يعيشون في مسارح الماضي الغابر ويميلون إلى
الأمر السلبي المسلمية الفكهة ، ويكرهون المبادئ والتعاليم الإيجابية
المجردة التي تلسعهم وتنهبهم من رقادهم العميق المغمور بالأحلام
الهائلة .

* * *

إنما الشرق مريض قد تناوبته العلل وتداولته الأوبئة حتى تعود السقم
وألف الألم وأصبح ينظر إلى أوصابه وأوجاعه كصفات طبيعية بسل
كخلال حسنة ترافق الأرواح النبيلة والأجساد الصحيحة ، فمن كان
خالياً منها عد ناقصاً محروماً من المواهب والكمالات العلوية .

وأطباء الشرق كثيرون يلازمون مضجعه ويتأمرن في شأنه ولكنهم
لا يداؤونه بغير المخدرات الوقتية التي تطيل زمن العلة ولا تبرئها .
أما تلك المخدرات المعنوية فكثيرة الأنواع متعددة الأشكال متباينة
الألوان ، وقد تولد بعضها عن بعض مثلما تناسخت الأمراض والعاهات

عن بعضها بعضاً . وكلما ظهر في الشرق مرض جديد يكتشف له أطباء الشرق مخدراً جديداً .

وأما الأسباب التي آلت إلى وجود المخدرات فعديدة أهمها استسلام العليل إلى فلسفة القضاء والقدر المشهورة ، وجبانة الأطباء وخوفهم من تبيح الألم الذي تحدثه الأدوية الناجعة .

واليك أمثلة من تلك المخدرات والمسكنات التي يتخذها الأطباء الشرقيون لمعالجة الأمراض العائلية والوطنية والدينية .

ينفر الرجل من زوجته والمرأة من بعلها لأسباب وضعية حيوية فيتخاصمان ويتضاربان ويتباعدان ، ولكن لا يمر يوم وليلة حتى يجتمع أهل الرجل بأهل زوجته فيتبادلوا الآراء المزخرفة والأفكار المرصعة ثم يتفقوا على إيجاد السلام بين الزوجين ، فيأتون بالمرأة ويستهوون عواطفها بالمواعظ الملققة التي تخجلها ولا تقنعها ، ثم يستدعوا الرجل يغمروا رأسه بالأقوال والأمثال المزركشة التي تلين أفكاره ولا تغيرها . و

يتم الصلح — الصلح الوقتي — بين الزوجين المتنافرين بالروقهراً عن إرادتهما إلى السكنى تحت سقف واحد حتى « ييوخ » ويزول تأثير المخدر الذي استخدمه الأهل والأنساء ، فيعود إظهار نفوره ومقتته والمرأة إلى إزالة النقاب عن تعاستها . غير أوجدوا الصلح في المرة الأولى يوجدونه ثانية ومن يرتشف المخدرات لا يأبى شرب كأس دهاق .

يتمرد قوم على حكومة جائرة أو على نظام قديم فيؤلفون إصلاحية « ترمى إلى النهوض والانعقاد فيخطبون بشجاعة

بحماسة وينشرون « اللوائح والبرامج » ويعثون « الوفود والممثلين » ، ولكن لا يمر شهر أو شهران حتى نسمع بأن الحكومة قد سجنّت رئيس الجمعية أو عهدت إليه بوظيفة ، أما الجمعية « الإصلاحية » فلا نعود نسمع عنها شيئاً لأن أفرادها قد تجرعوا قليلاً من المخدرات المعهودة وعادوا إلى السكينة والاستسلام .

تمرد طائفة على رئيس دينها لأمر أولية فتنقذ شخصه وتنكر أعماله وتبرم من مآتيه ، ثم تهدده باعتناقها مذهباً آخر أقرب إلى العقل وأبعد عن الأوهام والخرافات . ولكن لا يمر ربح من الزمن حتى نسمع بأن عقلاء البلاد قد أزالوا الخلاف بين الراعي ورعيته وأرجعوا بفضل المخدرات السحرية الهيبة إلى شخص الرئيس والطاعة العمياء إلى نفوس المرؤوسين العقوقين !

يتظلم مغلوب ضعيف من ظالم قوى فيقول له جاره « اسكت فالعين التي تعاند السهم تفقأ » .

يشك القروى بتقى الرهبان وإخلاصهم فيقول له زميله « اصمت فقد جاء في الكتاب اسمعوا أقوالهم ولا تفعلوا أفعالهم » .

يعرض التلميذ عن استظهار مباحث البصريين والكوفيين اللغوية فيقول له أستاذه إن الكسالى والمتوانين يخلتقون لنفوسهم أعداراً أقبح من الذنوب » .

تمتنع الصبية عن اتباع عوائد العجائز فتقول لها والدتها « ليست الابنة أفضل من أمها ، فالطريق التي سلكتها تسلكينها أنت أيضاً » .

يسأل الشباب مستفسراً معانى الزوائد الدينية فيقول له الكاهن « من

لا ينظر بعين الإيمان لا يرى في هذا العالم سوى الضباب والدخان .
وهكذا تمر الأيام إثر الليالي والشرق مضطجع على فراشه الناعم ،
يستيقظ دقيقة عندما تلسعه البراغيث ثم يعود ويهجع جيلا بحكم
المخدرات التي تمازج دمه وتسير في عروقه . فإذا ما قام رجل وصرخ
بالنائمين وملأ منازلهم ومعابدهم ومحاكمهم بالضجيج ، يفتحون أجفانهم
المطبقة بالنعاس الأبدي ثم يقولون متثائبين « ما أخشنه فتى لا ينام ولا
يدع الناس أن يناموا » ، ثم يغمضون عيونهم ويهمسون في آذان أرواحهم
« هو كافر ملحد يفسد أخلاق الناشئة ويهدم مباني الأجيال ويرشق
الإنسانية بالسهام السامة » .

قد سألت نفسي مرات إذا كنت من المستيقظين المتمردين الذين
يأبون شرب المخدرات والمسكنات ، فكانت نفسي تجيبني بكلمات
مبهمة ملتبسة ، ولكنني لما سمعت الناس يجدفون على اسمي ويتأففون من
مبادئى أيقنت بحقيقة يقظتى وعلمت أنني لست من المستسلمين إلى
الأحلام اللذيذة والخيالات المستحبة ، بل من أولئك المستوحدين الذين
تسيرهم الحياة على سبل ضيقة مغروسة بالأشواك والأزهار مخوفة
بالذئاب الخاطفة والبلابل المترنمة .

ولو كانت اليقظة فضيلة لمنعنى الاحتشام عن ادعائها ، ولكنها ليست
بفضيلة بل حقيقة غريبة تظهر على حين غفلة للأفراد المستوحدين وتسير
أمامها فيتبعونها قسر إرادتهم مجذوبين بأسلاكها الخفية محذقين بمعانيها
المهيبه .

وعندى أن الاحتشام في إظهار الحقائق الشخصية هو نوع من الرياء

الأبيض المعروف عند الشرقيين باسم التهذيب .

* * *

غداً يقرأ « الأدباء المفكرون » ما تقدم ، فيقولون متضجرين « هو متطرف ينظر إلى الحياة من الوجة المظلمة فلا يرى غير الظلام ، وقد طالما وقف فينا نادياً نائحاً باكياً علينا متأوهاً لحالنا » .
فلهؤلاء الأدباء المفكرين أقول — أنا أندب الشرق لأن الرقص أمام نعش الميت جنون مطبق .

أنا أبكى على الشرقيين لأن الضحك على الأمراض جهل مركب .
أنا أنوح على تلك البلاد المحبوبة لأن الغناء أمام المصيبة العمياء غباوة عمياء .

أنا متطرف لأن من يعتدل بإظهار الحق يبين نصف الحق ويبقى نصفه الآخر محجوباً وراء خوفه ظنون الناس وتقولاتهم .

أنا أرى الجيفة المتنتنة فتشمئز نفسي وتضطرب أحشائي ولا أستطيع أن أجلس قبالتها وفي يميني كأس من الشراب وفي شمالي قطعة من الحلوى .
فإن كان هناك من يريد أن يبدل توحى بالضحك ويحول اشمئز إلى الانعطاف وتطرفي إلى الاعتدال ، فعليه أن يريني بين الشرقيين حاكماً عادلاً ومنتشراً مستقيماً ورئيس دين يعمل بما يعلم وزوجاً ينظر إلى امراته بالعين التي يرى بها نفسه .

إن كان هناك من يريد أن يشاهدني راقصاً ويسمعني متطبلاً ومزمرأً فعليه أن يدعوني إلى بيت العريس لا أن يوقفني بين المقابر .

* * *

السرجين المفضض

١

سلمان أفندى :

هو رجل فى الخامسة والثلاثين من عمره ، حسن اللباس ، رشيق القامة ، ذو شاربين معكوفين ، وحذاء لامع ، يلبس الأجرة الحريرية ، ويدخن اللفائف الثمينة ، ويحمل بيده الناعمة عصاة جميلة ذات قبضة ذهبية مرصعة بالحجارة الكريمة ، ويأكل فى المطاعم الكبيرة حيث يلتهم سرة القوم وأشرفهم ، ويذهب إلى المنتزهات المشهورة فى مركبة فاخرة يجرها فرسان كريمان .

ولم يرث سلمان أفندى المال عن أبيه لأن أباه رحمه الله كان رجلاً فقيراً مسكيناً ، ولا جد متاجراً فاكتسب ثروة لأنه كسلان متوان يكره العمل ويظنه محطاً بمقامه . وقد سمعناه مرة يقول « إن جسدى وأخلاقى لا تساعدانى على الشغل فالشغل قد وجد لذوى الأخلاق الباردة والأجساد الخشنة » .

إذا كيف حصل سلمان أفندى على المال ، وأى ساحر حول التراب فى كفيه إلى فضة وذهب ؟

ذاك سر من أسرار السرجين المفضض ، أعلنه لنا عزرائيل ونحن

بدورنا نعلنه لكم :

منذ خمسة أعوام تزوج سلمان أفندى من السيدة فهيمة أرملة المرحوم بطرس نعمان التاجر الذى اشتهر بين أترابه بالجد والمواظبة والأمانة ، وقد كانت حينئذ السيدة فهيمة فى الخامسة والأربعين من عمرها وفى السادسة عشر من سننى عواطفها وأمياها ، وهى الآن تصبغ شعرها وتكحل عينيها وتطفى وجهها بالألوان والمساحيق ولكنها لا ترى سلمان أفندى قبل نصف الليل ، ولما حظيت منه بغير النظرات الحادة والألفاظ القاسية فهو مشغول عنها بتبذير الثروة التى جمعها زوجها الأول بكده وعرق جبينه .

٢

أديب أفندى :

فتى فى السابعة والعشرين من عمره . ذو أنف كبير وعينين صغيرتين ووجه قدر ويدين ملطختين بالخبر وأظافر محشوة بالأوساخ . أما ملبسه فممزقة الأطراف وعلى حواشيا بقع من الزيت والدهن والقهوة . وليست هذه المظاهر القبيحة من نتائج العوز والحاجة بل من مولدات إهماله وانشغال باله بالأموال المعنوية والمسائل العلوية والمواضيع الإلهية ... وقد سمعناه يقول مستشهداً بأمين الجندى « إن القرية لا تنصرف إلى شيئين » أى أن الأديب لا يستطيع أن يميل إلى صناعة القلم وإلى النظافة فى وقت واحد !

أديب أفندى يتكلم كثيراً ويتكلم دائماً فهو منصرف عن كل شيء إلا الكلام ، وقد علمنا أنه صرف عامين في إحدى مدارس بيروت ودرس علم البديع على أحد الأساتذة المشهورين ونظم الشعر وأنشأ الرسائل والمقالات ، ولكنه للآن لم ينشر منها شيئاً لأسباب كثيرة أهمها انحطاط الصحافة العربية وغبابة القراء !

وقد انصرف أديب أفندى في الآونة الأخيرة إلى خفايا الفلسفة القديمة والحديثه فهو معجب بسقراط ونيثشى في وقت واحد او يميل إلى أقوال القديس أغسطينس ميله إلى كتابات فولتر وجان جاك روسو ، وقد لقيناه مرة في عرس والناس حوله ينشدون الأهازيج ويشربون الخمر وهو يتكلم ببلاغته المشهورة عن مأساة هملت لشكسبير ! ورأيناه مرة أخرى سائراً في جنازة وجيه والمشيوعون يمشون إلى جانبه برؤوس منخفضة وملاحم مكتئبة وهو يتكلم بفصاحته المعهودة عن خمريات أنى النواس وغزليات الفارض !

لماذا ياترى يعيش أديب أفندى وما الغرض من صرفه الأيام والليالي بين الكتب القديمة والأوراق البالية ؟ ولماذا لا يقتنى له حماراً ويصير من عداد المكارين الأقوياء النافعين ؟

ذاك سر من أسرار السرجين المفضض أعلنه لنا بعزوبول ونحن بدورنا نعلنه لكم :

منذ ثلاث سنوات نظم أديب أفندى قصيدة خلق في مدح سيادة المطران يوحنا شمعون وأنشدها أمامه في دار حبيب بك سلوان ، ولما فرغ من تنغيمها دعاه سيادة المطران ووضع يده على كتفه وقال له مبتسماً « عفاك الله

يا ابني فما أبلغك شاعراً وما أذكاك أديباً . فأنا أفتخر بأمثالك بأنك ستكون من رجال الشرق الكبار .
ومن تلك الساعة إلى الآن ووالد أديب أفدى وعمه وخاله ينظرون إليه معجبين ، ويتحدثون عنه مفاخرين قائلين « أو لم يقل المطران يوحنا شمعون إنه سيكون من رجال الشرق العظام ؟ » .

٣

فريد بك دعيبس .
هو رجل يناهز الأربعين ، طويل القامة ، صغير الرأس ، كبير الفم ، ضيق الجبهة أصلعها ، يمشى متثاقلاً بصدر منتفخ وعنق مستطيل ولخطواته وزن خاص يضارع بخترة جمل يقل هودجا . وعندما يتكلم بصوته الجمهورى وأسلوبه الفخم تخاله — إن لم تكن تعرفه — أحد وزراء الدولة المشغولين بتدبير شؤون الناس المهتمين بتكليف أمور العباد .

وليس لفريد بك من عمل سوى الجلوس فى صدور المحافل وتعداد مآتى أسرته المجيدة ومزايا محتده الكريم . وهو مغرم بسبر أخبار الرجال العظام وأعمال الأبطال الكبار كنبليون وعترة العبسى ، وله ولع خاص بالأسلحة النفيسة ولديه منها مجموعة حسنة معلقة بترتيب على جدران منزله ولكنه لا يحسن استعمالها !

ومن أقواله المأثورة « أن الله خلق الناس طبقات متفاوتة منها

للرئاسة ومنها للخدمة » ومنها « إنما الشعب حمار حرون لا يسير إلا إذا علوت ظهره » ومنها « القلم للضعفاء أما السيف فللأشداء .. » .
وما هي الأسباب التي تجعل فريد بك أن يتمجد متغطرسا ويتجبر متعجرفا ويزهو مختالا متبذخاً متبجحاً .

ذاك سر من أسرار السرجين المفضض أبانه لنا سلطانا ئيل ونحن بدورنا نبينه لكم :

في الثلث الأول من القرن التاسع عشر بينما كان الأمير بشير الشهابي سائراً بكوكبة من رجاله بين أودية لبنان ، مرّ بقرب القرية التي كان يقطنها منصور دعيبس جد فريد بك دعييس . ولما كان النهار حاراً والشمس تريش الأرض بسهامها الدقيقة فتكاد تحرقها ترحل الأمير قائلاً لرجاله (تعالوا نرتاح في ظلال السنديانة) .

وعلم منصور دعييس بذلك فنادى جيرانه الفلاحين وأخبرهم بوجود الأمير الكبير على مقربة من قريتهم ، فساروا وراءه نحو تلك السنديانة حاملين أطباق التين والعنب وجرار اللبن والخمر والعسل . ولما بلغوا المكان تقدم منصور دعييس وقبل أطراف أذيال الأمير ثم نحر كبشاً أمامه وهتف قائلاً « هذا من خير أميرنا وولى نعمتنا » .

فسر الأمير بأريحيته وخلع عليه قائلاً « ستكون منذ الآن وصاعداً شيخاً على هذه القرية مشمولاً بنظري الخصوصي . وقد أعفيت سكان قريتك من الأموال الأميرية في هذه السنة » .

في تلك الليلة بعد أن تابع الأمير سيره اجتمع في بيت « الشيخ » منصور دعييس جميع سكان القرية ونادوا به رئيساً مطاعاً في السراء (العواصف)

والضراء — رحمهم الله جميعاً .

* * *

وللسرجين المفضض أسرار لا اعداد لها لتعلنها لنا الشياطين والأبالسة
في كل يوم وليلة ، وسوف نظهرها لكم قبل أن يسيرنا الدهر إلى ما وراء
الشفق الأزرق . أما الآن وقد انتصف الليل وملئت أجفاننا السهر
فاسمحو لنا أن ننام لعل عروس الأحلام تحمل روحنا إلى عالم أنظف من
هذا العالم .

رؤيا

عندما جن الليل وألقى الكرى رداءه على وجه الأرض تركت
مضجعى وسرت نحو البحر قائلاً فى نفسى « البحر لا ينام . وفى يقظة
البحر تعزية لروح لا تنام » .

بلغت الشاطئ وكان الضباب قد انحدر من أعالى الجبال وغمر تلك
النواحي مثلما يوشى النقب الرمادى وجه الصبية الحسناء . فوقفت
محدقاً بجيوش الأمواج مصغياً إلى تهاليلها ، مفكراً بالقوى السرمدية
الكامنة وراءها . تلك القوى التى تركض مع العواصف وتثور مع
البراكين وتبتسم بشغور الورود وتترنم مع الجداول .

وبعد هنيهة التفت فإذا بثلاثة أشباح جالسين على صخر قريب
وأغشية الضباب تسترهم ولا تسترهم ، فمشيت نحوهم ببطء كأن فى
كيانهم جاذباً يستميلنى قسر إرادتى .

ولما صرت على بعد بضع خطوات منهم وقفت شاخصاً بهم كأن فى
المكان سحراً أجمد ما بى من العزم وأيقظ ما فى روحى من الخيال .
فى تلك الدقيقة وقف أحد الأشباح الثلاثة . وبصوت خجلته آتياً من
أعماق البحر قال :

— « الحياة بغير الحب كشجرة بغير أزهار ولا أثمار . والحب بغير

الجمال كأزهار بغير عطر وأثمار بغير بذور .. الحياة والحب والجمال —
ثلاثة أقانيم في ذات واحدة مستقلة ، مطلقاً لا تقبل التغيير ولا الانفصال .
قال هذا وجلس في مكانه .

ثم انتصب الشبح الثاني ، وبصوت يماثل هدير مياه غزيرة قال :
— « الحياة بغير تمرد كالفصول بغير ربيع . والتمرد بغير حق كالربيع
في الصحراء القاحلة الجرداء .. الحياة والتمرد والحق — ثلاثة أقانيم في
ذات واحدة لا تقبل الانفصال ولا التغيير » .

ثم انتصب الشبح الثالث ، وبصوت كقصف الرعد قال :
— « الحياة بغير الحرية كجسم بغير روح . والحرية بغير الفكر
كالروح المشوشة .. الحياة والحرية والفكر ، ثلاثة أقانيم في ذات واحدة
أزلية لا تزول ولا تضمحل » .

ثم وقف الأشباح الثلاثة وبأصوات هائلة قالوا معاً :
— « الحب وما يولده . والتمرد وما يوجد به . والحرية وما تنميه —
ثلاثة مظاهر من مظاهر الله . والله ضمير العالم العاقل » .

وحدث إذ ذاك سكوت مفعم بحفيف أجنحة غير منظورة وارتعاش
أجسام أثرية ، فأغمضت عيني مصغياً إلى صدى الأقوال التي سمعتها .
ولما فتحتهما ونظرت ثانية لم أر غير البحر متشحاً بدثار الضباب ،
فاقتربت من الصخرة حيث كان الأشباح الثلاثة جالسين فلم أر إلا عموداً
من البخور متصاعداً نحو السماء .

في ظلام الليل

— كتبت أيام المجاعة —

في ظلام الليل ينادى بعضنا بعضاً .
في ظلام الليل نصرخ ونستغيث وخيال الموت منتصب في وسطنا .
وأجنحته السوداء تخيم علينا . ويده الهائلة تجرف إلى الهاوية أرواحنا . أما
عيناه الملتبهان فمحدثان بالشفق البعيد .
في ظلام الليل يسير الموت ونحن نسير خلفه خائفين متحبين وليس بيننا
من يستطيع الوقوف ، وليس فينا من له أمل بالوقوف .
في ظلام الليل يسير الموت ونحن نتبعه ، وكلما التفت الموت إلى الوراء
يسقط منا ألف إلى جانبي الطريق ، ومن يسقط يرقد ولا يستيقظ ، ومن
لا يسقط يسير قسر إرادته عالماً بأنه سيسقط ويرقد مع الذين رقدوا .
أما الموت فيظل سائراً محدقاً بالشفق البعيد .
في ظلام الليل ينادى الأخ وأخاه والأب أبناءه والأم أطفالها وكلنا
جائعون لاغبون متضورون . أما الموت فلا يجوع ولا يعطش فهو يلتهم
أرواحنا وأجسادنا ويشرب دماءنا ودموعنا ولكنه لا يشبع ولا يرتوى .
في الهزيع الأول من الليل ينادى الطفل أمه قائلاً « يا أماه أنا جائع »
فتجيبه الأم قائلة « اصبر قليلاً يا ولداه » .

وفي الهزيع الثاني ينادى الطفل أمه ثانية قائلاً « يا أماه أنا جائع فأعطيني خبزاً » فتجيبه « ليس لدى خبز يا ولداه » .

في الهزيع الثالث يمر الموت بالأم وطفلها ويصفعهما بجناحه فيرقدان على جانب الطريق ، أما الموت فيظل سائراً محمداً بالشفق البعيد .
في الصباح يذهب الرجل إلى الحقول طالباً القوت فلا يجد فيها غير التراب والحجارة .

وعند الظهرية يعود إلى زوجته وصغاره خائر القوى فارغ اليدين .
ولما يجيء المساء يمر الموت بالرجل وزوجته وصغاره فيجدهم راكدين فيضحك ثم يسير محمداً بالشفق البعيد .

في الصباح يترك الفلاح كوخه ويذهب إلى المدينة وفي جيبه حلى أمه وأختيه لبيتاع بها الدقيق . وعند العصر يعود إلى قريته بلا قوت ولا حلى فيجد أمه وابنتها راقدات أما عيونهن فلم تزل شاخصة باللاشيء ، فيرفع ذراعيه نحو السماء ثم يهبط إلى الحضيض كطائر رماه الصياد . وفي المساء يمر الموت بقرب الفلاح وأمّه وأختيه فيجدهم راكدين فيبتسم ثم يسير محمداً بالشفق البعيد .

في ظلام الليل ، وليس لظلام الليل نهاية ، نناديكم أيها السائرون في نور النهار فهل أنتم سامعون صراخنا ؟ .

قد بعثنا إليكم أرواح أمواتنا رسلاً فهل وعيتم ما قاله الرسل ؟ وحملنا الهواء الشرق من أنفاسنا حملاً فهل بلغ الهواء شواطئكم البعيدة وألقى بين يديكم أحماله الثقيلة ؟ هل عرفتم ما بنا فقمتم تسعون لإفناذنا أم وجدتم نفوسكم في سلامة وطمأنينة فقلتم « ماذا عسى يستطيع الجالسون في

النور أن يفعلوا لأبناء الظلام ، فلندع الموقى أن يدفنوا أمواتهم ولتكن مشيئة الله .

أى ، لتكن مشيئة الله .

ولكن هلا تستطيعون أن ترفعوا نفوسكم إلى ما فوق نفوسكم ليصيركم الله مشيئة له وعوناً لنا ؟ .

في ظلام الليل ينادى بعضنا بعضاً .

في ظلام الليل ينادى الأخ أخاه والأم ابناً والزوج زوجته والمحب حبيبته ، وعندما تتمازج أصواتنا وتتعالى إلى كبد الفضاء يقف الموت هنيهة ضاحكاً منا مستهزئاً بنا ثم يسير محمداً بالشفق البعيد .

الأضراس المسوسة

كان في فمى ضرس مسوس — وكان يحتمل على تعذيبي فيسكن
متربصاً ساعات النهار ويستيقظ مضطرباً في هدوء الليل عندما يكون
أطباء الأسنان نائمين والصيدلية مغلقة .

ففى يوم وقد نفذ صبرى ذهبت إلى أحد الأطباء وقلت له « ألا فانزع
ضرساً خبيثاً يجرمنى لذة الرقاد ويحول سكينه ليالى إلى الأئين
والضجيج » .

فهز الطبيب رأسه قائلاً « من الغباوة أن نستأصل الضرس إذا كان
بإمكاننا تطيبه » .

ثم أخذ يحفر جوانب الضرس وينظف زواياه ويتفنن بتطهيره من
العلة . ولما وثق بأنه صار خالياً من السوس حشا ثقوبه بالذهب الخالص
ثم قال مفاخراً « لقد أصبح ضرسك العليل أشد وأصلب من أضراسك
الصحيحة » فصدقت كلامه وملأت حفنته بالدنانير وذهبت فرحاً .

ولكن لم يمر الأسبوع حتى عاد الضرس المشؤوم إلى تعذيبي وإبدال
أنغام روحى بمشرجة الاحتضار وعويل الهاوية .

فذهبت إلى طبيب آخر وقلت له بصوت يعانقه الحزم « ألا فاخلعه
ضرساً مذهباً شريراً — ولا تعترض (فمن يأكل العصى لا كمن

بعدها».

فنزح الطبيب الضرس وقد كانت ساعة هائلة بأوجاعها ولكنها كانت ساعة مباركة .

وقد قال لى الطبيب بعد أن استأصل الضرس وتفحصه جيداً « لقد فعلت حسناً — فالعلة قد تحكمت بأصول ضرسك هذا حتى لم يبق رجاء بشفائه .

وقد نمت مرتاحاً فى تلك الليلة — ولم أزل فى راحة والحمد للخلع والاستئصال . فى فم الجامعة البشرية أضراس مسوسة وقد نخرتها العلة حتى بلغت عظم الفك ، غير أن الجامعة البشرية لاتستأصلها لترتاح من أوجاعها بل تكتفى بتمريرها وتنظيف خارجها وملء ثقبها بالذهب اللماع .

وما أكثر الأطباء الذين يداوون أضراس الإنسانية بالطلاء الجميل والمواد البراقة . وما أكثر المرضى الذين يستسلمون إلى مشيئة أولئك الأطباء المصلحين فيتوجعون ويسقمون ثم يموتون بعلمهم مخدوعين . غير أن الأمة التى تعتل ثم تموت لاتبعث ثانية لتظهر للملأ أسباب الأمراض المعنوية وماهية الأدواء الاجتماعية التى تؤول بالأهم إلى الانقراض والعدم .

* * *

وفى فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قدرة ذات رائحة كريهة ، وقد حاول أطباؤها تطهيرها وحشوها بالمينا وإلباس خارجها رقوق الذهب ولكنها لاتشفى ولن تشفى بغير الاستئصال . والأمة التى تكون

أضراسها معتلة تكون معدتها ضعيفة ، وكم أمةً ذهبت شهيدة عسر
الهضم .

ومن شاء أن يرى أضراس سورية الموسوسة فليذهب إلى المدرسة حيث
يستظهر رجال الغد ما قاله الأخفش نقلا عن سيويه ، وسيويه عن سائق
الأطعان .

أو فليذهب إلى المحكمة حيث يتلاعب الذكاء البهلواني بالقضايا
الشرعية مثلما تلعب القطعة بصيدها .

أو فليذهب إلى منازل الموسرين حيث التصنع والكذب والرياء .

أو فليذهب إلى بيوت الفقراء حيث الخوف والجبانة والجهالة .

وبعد ذلك فليذهب إلى أطباء الأسنان ذوى الأسنان ذوى الأصابع
الناعمة والآلات الدقيقة والمساحيق المخدرة ، الذين يصرفون الأيام
بإملاء ثقوب الأضراس الموسوسة وتطهير زواياها المعتلة ، وإذا أراد
محدثهم والانتفاع بمواهبهم فهم هم النبهاء الفصحاء البلغاء الذين يؤلفون
الجمعيات ويعقدون المؤتمرات ويخطبون في النوادي والساحات ، ففى
حديثهم نغمة أسمى من أناشيد حجر الرحي وأنبل من أغاني الضفادع في
ليالي تموز .

ولكن إذا قال لهم « إن الأمة السورية تقضم قوت الحياة بأضراس
مسوسة ، وإن كل لقمة تلوكتها تمتزج بلعاب مسموم وأنه قد نتج عن ذلك
مرض فى أمعائها » . إذا قال هذا يجيبونه بقولهم « نعم ونحن الآن
منصرفون إلى درس أحدث المساحيق وأجد المخدرات » .

وإذا قال لهم « ماقولكم بالاستئصال ؟ » يضحكون منه لأنه لم يدرس طب الأسنان الشريف .
وإذا أعاد السؤال ثانية يتعدون عنه متضجرين قائلين في نفوسهم « ما أكثر الخياليين في هذا العالم وما أوهى أحلامهم ! » .

* * *

مساء العيد

جاء المساء وغمر الظلام فشعشت الأنوار في القصور والمنازل
وخرج الناس إلى الشوارع بملابس العيد الجديدة وعلى وجوههم سيماء
البشر والاستكفاء ومن بين دقائق لثائم تنبعث رائحة المآكل
والخمور ...

أما أنا فسرت وحيداً منفرداً مبتعداً عن الزحام والضجيج أفكر
بصاحب العيد .

أفكر بنابغة الأجيال الذى ولد فقيراً وعاش متجرداً ومات
مصلوباً ...

أفكر بالشعلة النارية التى أوقدها الروح الكلى فى قرية حقيرة بسوريا ،
فطافت مرفرفة فوق رؤوس العصور مخترقة مدنية بعد مدنية ...

ولما بلغت الحديقة العمومية ، جلست على مقعد خشبى أنظر من
خلال أغصان الأشجار العارية نحو الشوارع المزدهمة وأسمع عن بعد
أناشيد المعيدىن السائرين فى موكب اللهو والخلو ..

وبعد ساعة مفعمة بالأفكار والأحلام التفت وإذا برجل جالس بقربى
على المقعد وفى يده عصاه يرسم بطرفها خطوطاً ملتبسة على التراب ..
فقلت فى نفسى « هو مستوحى مثلى » ثم تفرست إليه متبصراً شكله

فألفيته رغم أثوابه القديمة وشعره المسترسل المشوش ذا هيبة ووقار ..
وكأنه قد شعر بأننى أنظر إليه متفحصاً شكله وملاحظه فالتفت نحوى
وقال بصوت عميق هادئ « مساء الخير » فأرجعت التحية قائلاً « أسعد
الله مساءك » .

ثم عاد يرسم الخطوط بعكازه على أديم الأرض ، وبعد هنيهة وقد
أعجبت بنغمة صوته خاطبته ثانية قائلاً : « هل أنت غريب فى هذه
المدينة ؟ » .

فأجاب « أنا غريب فى هذه المدينة وأنا غريب فى كل مدينة
أخرى » .

قلت « إن الغريب فى مثل هذه المواسم يتناسى مافى الغربة من الضمير
والوحشة لما يجده فى الناس من الأُنس والانعطاف » .

فأجاب « أنا غريب فى مثل هذه الأيام أكثر منى فى غيرها » .

قال هذا ونظر إلى الفضاء الرمادى فاتسعت عيناه وارتعشت شفتاه
كأنه رأى على صفحة الفضاء رسوم وطن بعيد ..

قلت « إن القوم فى هذه المواسم يعطفون على بعضهم البعض فالغنى
يذكر الفقير والقوى يرحم الضعيف » .

فأجاب « نعم وما رحمة الغنى بالفقير سوى نوع من حب الذات
وليس انعطاف القوى على الضعيف إلا شكلاً من التفوق والافتخار » .

قلت « قد تكون مضيئاً ، ولكن ماذا بهم الفقير الضعيف ما يجول فى
باطن الغنى القوى من الرغائب والأُميال ؟ . إن الجائع المسكين يحلم
بالخبز ولكنه لا يفكر بالكيفية التى يعجن بها الخبز » .

فأجاب « إن الموهوب لا يفكر أما الواهب فيجب عليه أن يفكر ويفكر طويلاً » .

فأعجبت بكلامه وعدت أتأمل منظره الغريب وأثوابه القديمة .. وبعد سكينه نظرت إليه قائلاً « يلوح لى أنك فى حاجة فهلا قبلت درهماً أو درهين ؟ » .

فأجاب وقد ظهرت على شفتيه ابتسامة محزنة « نعم أنا بحاجة ولكن لى غير المال » .

قلت « وماذا تحتاج ؟ » .

فقال « أنا بحاجة لى مأوى .. أنا بحاجة لى مكان أسند لى رأسى » .

قلت « خذ منى درهين واذهب لى النزول واستأجر غرفة » .

فأجاب « قد ذهبت لى كل نزل فى هذه المدينة فلم أجد لى مأوى ، وطرقت كل باب فلم أر لى صديقاً ، ودخلت كل مطعم فلم أعط خبزاً » .

فقلت فى نفسى : ماأغربه فتى يتكلم تارة كالفيلسوف وطوراً كالمجنون .

ولكن لم أمس لفظه « مجنون » فى أذن روى حتى حدق لى شاخصاً ورفع صوته عن ذى قبل وقال « نعم أنا مجنون ومن كان مثلى يرى نفسه غريباً بلا مأوى وجائعاً بلا طعام » .

قلت مستدر كاستغفراً « ساعظنونى فأنا لا أعرف من أنت وقد استغربت كلامك ، فهلا قبلت دعوتى وذهبت معى لتصرف الليلة فى منزلى ؟ » .

فأجاب « قد طرقت بابك ألف مرة ولم يفتح لي » .
قلت وقد تحققت جنونه « تعال الآن واصرف الليلة في منزلي ؟ » .
فرفع رأسه وقال « لو عرفت من أنا لما دعوتني ؟ » .
فقلت « ومن أنت ؟ » .
قال وفي صوته هدير مياه غزيرة « أنا الثورة التي تقيم ما أقعدته الأمم .
أنا العاصفة التي تقتلع الأنصاب التي أنبتتها الأجيال . أنا الذي جاء ليلقي
في الأرض سيفاً لاسلاماً » .
ووقف منتصباً وتعالت قامته وسطع وجهه وبسط ذراعيه فظهر أثر
المسامير في كفيه : فارتميت راکعاً أمامه وصرخت قائلاً « يا يسوع
الناصرى ... » .
وسمعته يقول إذ ذاك « العالم يعيد لاسمى وللتقاليد التي حاكتها الأيام
حول اسمى . أما أنا فغريب أطوف تائهاً في مغارب الأرض ومشارقها
وليس بين الشعوب من يعرف حقيقتي » .
للتعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وليس لابن الإنسان أن يسند
رأسه .
ورفعت رأسى إذ ذاك ونظرت فلم أر أمامى سوى عمود من البخور
ولم أسمع سوى صوت الليل آتياً من أعماق الأبدية .

الجبابة

ليس من يكتب بالخبر كمن يكتب بدم القلب وليس السكوت الذى
يحدثه الملل كالسكوت الذى يوجدده الألم .

أما أنا فقد سكت لأن آذان العالم قد انصرفت عن همس الضعفاء
وأنيهم إلى عويل الهاوية وضجتها ، ومن الحكمة أن يسكت الضعيف
عندما تتكلم القوى الكامنة فى ضمير الوجود — تلك القوى التى لا
ترضى بغير المدافع ألسنة ولا تقنع بسوى القنابل ألفاظاً .

نحن الآن فى زمن أصغر صغائره أكبر من كبائر ماتقدمه . فالأمور
التي كانت تشغل أفكارنا وأميالنا وعواطفنا قد انزوت فى الظل .
والمسائل والمشاكل التي كانت تتلاعب بأرائنا ومبادئنا قد توارت وراء
نقاب من الإهمال . أما الأحلام المستحبة والأشباح الجميلة التي كانت
تميس متنقلة على مسارح وجداننا فقد تبددت كالضباب وحل محلها
جبابة تسير كالعواصف وتهايل كالبحار وتتنفس كالبراكين .

وما عسى أن يصير إليه العالم بعد أن تنتهى الجبابة من صراعها ؟ .
هل يعود القروى إلى حقله فيلقى البذور حيث زرع الموت جماجم
القتلى ؟ .

هل يقود الراعى مواشيه إلى مروج مزقت أديمها السيوف ويوردها

مناهل يمتزج ماؤها بنجيع الدماء ؟

هل يركع العابد في هيكل رقصت فيه الشياطين ، ويردد الشاعر
قصائده أمام كواكب حُجبت بالدخان ، وينغم المنشد أغانيه في ليل
عانقت سكينته الأهوال ؟

هل تجلس الأم بجانب سرير رضيعها مرتلة بالهدوء أغاني النوم وهي لا
ترتجف وجلاً مما سيجلبه الغد ؟ .

هل يلتقى الحبيب بجبيته ويتبادلان القبل حيث التقى العدو بعدوه
وتبادلا القذائف ؟ .

وهل يعود نيسان إلى الأرض ويستر بقميصه أعضائها المكلومة ؟ .
ليت شعري ! هل يعود نيسان إلى الحقول ؟ .

* * *

وماذا عسى تصير إليه بلادكم وبلادى ؟ وأى من الجبابرة يضع يده
على تلك التلال والهضبات التى أنبتتنا وصيرتنا رجالاً ونساء أمام وجه
الشمس ؟ .

هل تبقى سوريا مطروحة بين مغائر الذئاب وحظائر الخنازير ، أو
ياترى تنتقل مع العاصفة إلى عرين الأسد أو ذروات النسر ؟ .
وهل يطلع الفجر فوق قمم لبنان ؟ .

كلما خلوت بنفسى أطرح عليها هذه السؤالات ، غير أن النفس
كالقضاء تبضر ولا تتكلم وتسير ولكنها لا تلتفت ، فهى ذات عيون
تتجلى وأقدام تنسارع ، أما لسانها فتثقل .

ومن منكم أيها الناس لم يسأل نفسه في كل يوم وليلة عن مصير
(العواصف)

الأرض وسكانها بعد أن تختمر الجبابرة من دموع الأرامل والأيتام ؟ .
أنا من القائلين بسنة النشوء والارتقاء ، وفي عرفي أن هذه السنة تتناول
بمفاعيلها الكيانات المعنوية بتناولها الكائنات المحسوسة ، فتنقل بالأديان
والحكومات من الحسن إلى الأحسن ، انتقلها بال مخلوقات كافة من
المناسب إلى الأنسب ، فلا رجوع إلى الوراء إلا في الظاهر ولا انحطاط إلا
في السطحى .

ولسنة الارتقاء سبل متشعبة يتفرع بعضها من بعض ولكنها متلازمة
الأصول ، ومظاهر قاسية ظالمة مظلمة تنكرها الأفكار المحدودة وتتمرد
عليها القلوب الضعيفة ، أما خفاياها فعادلة منيرة متمسكة بحق أسمى من
حقوق الأفراد ، محذقة بغرض أعلى من مرام الجماعة ، مصغية إلى صوت
يغمر بهوله وعذوبته تهديدات المنكوبين وغصبات المتوجعين .

حولى بكل مكان أقزام يرون عن بعد أشباح الجبابرة متناضلين
ويسمعون في المنام صدى تهليلهم فيضجعون كالضفادع قائلين : قد
رجع العالم في فطرية الوضعيه . فما بنته الأجيال بالعلم والفن قد هدمه
الإنسان الوحشى بالطمع والأنانية ، فحالنا اليوم حال سكان الكهوف
ولا يميزنا عنهم سوى آلات نبتدعها للدمار وحين نستخدمها للهلاك ؟ .

هذا ما يقوله هؤلاء الذين يقيسون ضمير العالم بمقياس ضمائرهم
ويحللون مراد الوجود بالفكرة القصيرة التى يستخدمونها لحفظ وجودهم
الفردى فكأن الشمس لم تكن إلا لتدفقتهم ، وكأن البحر لم يوجد إلا
لغسل أرجلهم .

من أحشاء الحياة ، من وراء المرئيات ، من أعماق السكون المدبر
حيث تصان أسرار الكون المدبر ، قد انبثقت الجبارة كالريح وتصاعدوا
كالغيوم ثم تلاقوا كالجبال ، وهم الآن يتصارعون ليحلوا مشكلة في
الأرض لا يحلها غير الصراع .

أما البشر وكل ما في رؤوسهم من المدارك والمعارف ، وما في قلوبهم
من المحبة والبغضاء ، وما يعانق نفوسهم من الصبر والجزع والأوجاع ،
فآلات يتناولها الجبارة ويديرونها توصلها إلى غاية علوية لا بد من بلوغها .
أما الدماء التي أهرقت فسوف تجرى أنهاراً كثرية ، وأما الدموع
التي نثرت فستتبت أزهاراً زكية ، وأما الأرواح التي فاضت فسوف
تجتمع وتتألف وتتطلع من وراء الأفق الجديد صباحاً جديداً ، فيعلم
الناس بأنهم قد ابتاعوا الحق في سوق البؤس وأن من ينفق في سبيل الحق
لم يخسر .

مات أهلى

(كُتِبَتْ أَيامُ الْمَجَاعَةِ)

مات أهلى وأنا قيد الحياة أندب أهلى فى وحدتى وانفرادى .
مات أحبائى وقد أصبحت حياتى بعدهم بعض مصابى بهم .
مات أهلى وأحبائى وغمرت الدموع والدماء هضبات بلادى ، وأنا
ههنا أعيش مثلما كنت عائشاً عندما كان أهلى وأحبائى جالسين على
منكبى الحياة وهضبات بلادى مغمورة بنور الشمس .
مات أهلى جائعين ومن لم يميت جوعاً قضى بحد السيف ، وأنا فى هذه
البلاد القصية أسير بين قوم فرحين مغبوطين يتناولون المآكل الشهية
والمشارب الطيبة وينامون على الأسرة الناعمة ويضحكون للأيام
تضحك لهم .
مات أهلى أذل ميتة وأنا ههنا أعيش فى رغد وسلام ، وهذه المأساة
المستتبة على مسرح نفسى .
لو كنت جائعاً بين أهلى الجائعين مضطهداً بين قومى المضطهدين
لكانت الأيام أخف وطأة على صدرى ، والليالى أقل سواداً أمام عينى .
لأن من يشارك بالأسى والشدة يشعر بتلك التعزية العلوية التى يولدها
الاستشهاد ، بل يفتخر بنفسه لأنه يموت بريئاً مع الأبرياء .

ولكنى لست مع قومي الجائعين ، المضطهدين ، السائرين في موكب الموت نحو مجد الاستشهاد ، بل أنا ههنا وراء البحار السبعة أعيش في ظل الطمأنينة وحمول السلامة . أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا أستطيع أن أفخر بشيء حتى ولا بدموعي .

وماذا عسى يقدر المنفى البعيد أن يقول لأهله الجائعين .

ليت شعري ، ماذا ينفع ندب الشاعر ونواحه ؟ .

لو كنت سنبله من القمح نابثة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويزيل بجباقي يد الموت عن نفسه .

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقضمني طعاماً .

لو كنت طائراً في فضاء بلادي ، لكان الرجل الجائع يصطادني ويزيل بجسدي ظل القبر عن جسده .

ولكن ، واحر قلباه ، لست بسنبله من القمح في سهول سوريا ، ولا بثمرة يانعة في أودية لبنان . وهذه هي نكبتى الصامته التي تجعلني حقيراً أمام نفسي وأمام أشباح الليل .

هذه هي المأساة الموحجة التي تعقد لساني وتكبل يدي ثم توقفتى بلا عزم ولا إرادة ، ولا عمل .

يقولون لي — ما نكبة بلادك سوى جزء من نكبة العالم ، وما الدموع والدماء التي هرقت في بلادك سوى قطرات من نهر الدماء والدموع المتدفق ليلاً ونهاراً في أودية الأرض وسهولها .

نعم ، ولكن نكبة بلادى نكبة خرساء — نكبة بلادى جريمة جبلت
بها رؤوس الأفاعى والثعابين — نكبة بلادى مأساة بغير أناشيد ولا
مشاهد .

لو ثار قومى على حكاهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين لقلت إن
الموت فى سبيل الحرية لأشرف من الحياة فى ظلال الاستسلام . ومن
يعتق الأبدية والسيف فى يده كان خالداً بخلود الحق .

لو اشتركت أمتى بجرىب الأمم وانقضت عن بكرة أيها فى ساحة
القتال لقلت هى العاصفة الهوجاء تهصر بعزمها الأغصان الخضراء
واليابسة معاً ، والموت تحت أغصان العواصف لأشرف منه بين ذراعى
الشيخوخة .

ولو زلزلت الأرض زلزالها وقلبت ظهر بلادى صدرأ وغمر التراب
أهلى وأحبائى لقلت هى النواميس الخفية تتحرك بمشيئة قوة فوق قوى
البشر ، فمن الجهالة أن نحاول إدراك أسرارها وخفاياها .

ولكن لم يمت أهلى متمردين ، ولا هلكوا محاربين ، ولا زعزع
الزلازل بلادهم فانقضوا مستسلمين .

مات أهلى على الصليب .

ماتوا وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة بسواد
الفضاء .

ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أغلقت دون صراخهم .

ماتوا لأنهم لم يحبوا أعداءهم كالجبناء ، ولم يكرهوا محبيهم
كالجاهدين .

ماتوا لأنهم لم يكونوا مجرمين .
ماتوا لأنهم لم يظلموا الظالمين .
ماتوا لأنهم لم يكونوا مسلمين .
ماتوا جوعاً في الأرض التي تدر لبناً وعسلاً .
ماتوا لأن الثعبان الجهنمي قد التهم كل ما في حقولهم من المواشى وما
في أهرائهم من الأقوات .
ماتوا لأن الأفاعى أبناء الأفاعى قد نفثوا السموم في الفضاء الذي
كانت تملؤه أنفاس الأرز وعطور الورد والياسمين .

* * *

مات أهلى وأهلكم ، أيها السوريون ، فماذا نستطيع أن نفعل لمن لم
يمت منهم .
إن نواحننا لا يسد رمقهم ، ودموعنا لا تروى غليلهم إذن ماذا نفعل
لنتقدهم من الجوع والشدة ؟ .
هل نبقى مرتابين ، مترددين ، متكاسلين ، مشغولين عن المأساة
العظمى بتوافه الحياة وصغائرها ؟
إن العاطفة التي تجعلك ، يا أخى السورى ، أن تعطى شيئاً من
حياتك لمن يكاد أن يفقد حياته ، هي الأمر الوحيد الذى يجعلك
حرياً بنور النهار وهدوء الليل .
وإن الدرهم الذى تضعه فى اليد الفارغة الممدودة إليك هو الحلقة
الذهبية التى تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية .

* * *

الأمم وذواتها

الأمة مجموع أفراد متباينى الأخلاق والمشارب والآراء تضمهم رابطة معنوية أقوى من الأخلاق وأعمق من المشارب وأعم من الآراء .
وقد تكون الوحدة الدينية بعض خيوط هذه الرابطة ، غير أن الخلاف فى العقيدة لا يجل الروابط الأومية إلا إذا كانت ضعيفة واهية كما هى معنوية أقوى من الأخلاق فى البلاد الشرقية .
وقد تكون وحدة اللغة سبباً أساسياً لإيجاد هذه الرابطة ، ولكن هناك شعوب كثيرة تتكلم لغة واحدة مع أنها فى خلاف مستمر من حيث السياسة والإدارة والنظريات الاجتماعية .
وقد تكون الوحدة الدموية أساساً لهذه الرابطة ، ولكن فى التاريخ أمثلة عديدة نستدل منها على أن أفخاذ عنصر واحد انشقت بعضها على بعض ، وكان ذلك الانشقاق مجلبة للتطاحن والتباغض ثم الاضمحلال .
وقد تكون المصلحة المادية نولا تحاك عليه تلك الرابطة ، ولكن شعوب عديدة لم تحك مصلحتهم المادية سوى المنافسة والمناقشة .
إذن ما هى تلك الرابطة الاجتماعية ؟ وما هى التربة التى تنبت فيها أنصاب الأمم ؟ .
لى رأى فى الرابطة الأومية قد يحسبه بعض المفكرين غريباً ، لأن

أصوله . ونتائجه ليست من الأمور المحسوسة .

أما رأى فهو هذا :

لكل شعب ذات عامة ، تشابه بجوهرها وطبيعتها ذات الفرد ، و مع أن هذه الذات العامة تستمد كيانها من أفراد الشعب كما تستمد الشجرة حياتها من الماء والتراب والنور والحرارة فهي مستقلة عن الشعب ولها حياة خاصة وإرادة منفردة . وكما يصعب على تحديد وتعيين الزمن الذى تتولد فيه ذات الفرد الواحد ، هكذا يصعب على تعيين وتحديد الزمن الذى تتولد فيه الذات العامة غير أننى أشعر أن الذات المصرية — مثلا — قد تبلورت قبل ظهور الدولة الأولى على ضفاف النيل بزمن لا يقل عن خمسمائة سنة . ومن تلك الذات العامة قد استمدت مصر مظاهرها الفنية والدينية والاجتماعية . وما أقوله عن مصر يصح فى آشور وفارس واليونان ورومة والعرب وغيرها من الأمم الحديثة ، أعنى تلك التى ظهرت بعد انقضاء الأجيال المتوسطة .

قلت إن للذات العامة حياة خاصة . نعم ، ولما كان لكل حى عمر محدود كان لتلك الذات العامة أجل محدود لاتجاوزه . ومثلما يسير الكيان الفردى من الطفولة إلى الشبيبة إلى الكهولة ، إلى الشيخوخة هكذا يتدرج كيان الذات العامة من يقظة الفجر الموحشة بنقاب النوم ، إلى يقظة الظهر المتجلية بنور الشمس ، إلى يقظة الليل المغمورة بالنعاس ، إلى سبات عميق .

إن الذات اليونانية قد استيقظت فى القرين العاشر قبل المسيح ومشت بعزم وجلال فى القرن الخامس قبل المسيح ، ولما بلغت عهد الناصرى

كانت قد ملّت أحلام اليقظة فنامت على مضجع الأبدية لتعانق أحلام الأبدية .

أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام ، ولم تتمخض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبار واثارت كالعاصفة متغلبة على كل ما يقف في سبيلها . ولما بلغت العباسيين تربعت على عرش منتصب فوق قواعد لاعداد لها أولها في الهند وآخرها في الأندلس . ولما بلغت عصارى نهارها ، وكانت الذات المغولية قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً . وقد تعود وتفيق ثانية لتبين ما بقى خفياً في نفسها . كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس وأكملت في البندقية وفلورنسا وميلان ما ابتدأت به قبل أن تباغتها الشعوب التوتونية في بدء الأجيال المظلمة .

وأغرب الذوات العامة في التاريخ هي الذات الفرنساوية ، فها قد عاشت ألفى سنة أمام وجه الشمس ولم تنزل في شبيبة نضرة . وهي اليوم أدق فكراً وأحد نظراً وأوسع فناً وعلماً مما كانت في أى زمن من تاريخها المجيد .

فرودان وكارير وشيتان وهوغو ورينان وساسه وسيمون ، وجميعهم من أبناء القرن التاسع عشر كانوا أعظم رجال العالم فناً وأكثرهم علماً وأبعدهم خيالاً — الأمر الذى يدلنا على أن لبعض الذوات العامة أعماراً أطول من الأخرى ، فالذات المصرية عاشت ثلاثة آلاف سنة . أما الذات اليونانية فلم تعش أكثر من ألف سنة . وقد تكون الأسباب في

طول آجال الذوات العامة أو قصرها شبيهة بأسباب قصر أعمار الأفراد أو طولها .

وماذا يا ترى يحل بالذات العامة بعد أن تلعب دورها على مسرح الوجود ؟ .

هل تموت وتفنى بدورها غير تاركة وراءها سوى الذكرى لمن يجيء بعدها ؟ هل تضمحل أمام الأيام والليالي كأنها لم تكن مظهراً لليالي والأيام ؟

في عقيدتي أن الكيان المعنوي يتغير ولكنه لا ولن يضمحل . فهو كالكيان المادى يتحول من شكل إلى شكل ومن صورة إلى صورة . أما دقائقه وذراته الوضعية فباقية ببقاء الزمن . فذات الأمة العامة تنام ولكن نوم الأزاهر بعد أن تلقى بذورها في تربة الأرض ، أما عطرها فيتصاعد إلى عالم الخلود . وعندى أن العطر في الأمة أو في الزهرة هو الحقيقة المجردة — هو الجوهر المطلق . فعطر ثيب وبابل ونيوى وأثينا وبغداد موجود الآن في الغلاف الأثيرى المحيط بالأرض ، بل هو موجود في أعماق أرواحنا . ونحن — أفراداً وجماعات — ورثة كل الذوات العامة التى وجدت على سطح الأرض .

غير أن ذاك الإرث العلوى لا يتخذ له صوراً محسوسة في الفرد أو الجماعات حتى تتبلور الأمة التى ينتسب الأفراد والجماعات إليها ، وتصير ذاتاً لها حياة خاصة وإرادة منفردة .



همسة في سر الوجود ..

فلسفة المنطق أو معرفة الذات

في ليلة من ليالى بيروت الممطرة جلس سليم أفندى دعبس أمام منضدة فوقها أكداس من الكتب العتيقة والأوراق المنثورة يقلب الأسفار ويرفع رأسه بين الآونة والأخرى مخرجاً من بين شفثيه الغليظتين سحابة من دخان التبغ . وقد كان بين يديه إذ ذاك رسالة فلسفية أوحاها سقراط لتلميذه أفلاطون في « معرفة الذات » .

كان سليم أفندى يتبصر آيات تلك الرسالة النفيسة مستحضراً إلى حافظته ما قاله الفلاسفة والمرشدون في موضوعها حتى لم يُبق شاردة لمفكر غربي إلا ولازمت فكرته ولا واردة لمعلم شرقي إلا ولاحت ذاكرته ، حتى إذا ما غرقت ذاته في موضوع معرفة الذات نهض فجأة ومد ذراعيه وصرخ بأعلى صوته قائلاً : « نعم . نعم إن معرفة الذات هي أم كل معرفة . أما أنا فعلى أن أعرف ذاتي وأعرفها تماماً ، وأعرفها بتفاصيلها ومعالمها ودقائقها وذراتها . على أن أزيل النقاب عن أسرار نفسي وأمحو الالتباس عن مكامن قلبي . بل على أن أبين معاني كياني المعنوي لكياني الهيولى وخفايا وجودى الهيولى لوجودى المعنوى .

قال هذا بحماسة غربية وفي عينيه تنقد شعلة « محبة المعرفة » ، معرفة الذات — ثم دخل إلى غرفة محاذية وانتصب كالتمثال أمام مرآة كبيرة تصل

أرض الغرفة بسقفها ونظر محققا بشبحة متفرسًا وجهه متأملا بشكل رأسه وخطوط قامته وإجمال هيأته .

ظل واقفًا جامدًا على هذه الحالة نصف ساعة ، كأن الفكرة الأزلية قد أنزلت عليه أفكارًا هائلة بسموها تجعله بواسطتها أن يكتشف بواطن روحه ويملاً بالنور خلایا ذاته . ثم فتح شفثیه بهدوء وقال مخاطباً نفسه .
أنا قصير القامة وهكذا كان نابليون وثكتور هوغو .

أنا ضيق الجبهة وهكذا كان سقراط وسينوزا .

أنا أصلع وهكذا كان شكسبير .

أنفى كبير ومنحن إلى جهة واحدة ، وهكذا كان سفنوزولا وفولتير وجورج واشنطن .

فى عینی سقم وهكذا كان بولس الرسول ونيثشة .

فمى غليظ وشفثى السفلى ناتئة ، وهكذا كان شيشرون ولويس

الرابع عشر .

عنقى غليظ ، وهكذا كان هنيبال ومرقس أنطونيوس .

أذناى مستطيلتان بارزتان إلى الجهة الوحشية، وهكذا كان برونر

وسرفانتى .

وجنتاى بارزتان ، وخداى ضامرتان ، وهكذا كان لاقيات

ولنكلن .

ذفنى متقاهر إلى الوراى ، وهكذا كان غولد سميث وزليم بت .

كتفاى متباينان فالواحد يعلو على الآخر ، وهكذا كان غمبتا وأديب

إسحق .

يداي ثخينتا الكفين قصيرتا الأصابع ، وهكذا كان بليك ودانتون .
وبالإجمال جسدى ضعيف نحيل ، وهذا شأن أكثر المفكرين الذين
تتعب أجسادهم فى مرامى نفوسهم . ومن الغريب أنى لا أستطيع
الجلوس كاتبًا أو مطالعًا إلا وبجانبي إبريق القهوة ، مثلما كان يفعل
بلزاك . وفوق ذلك فى ميل إلى معاشره الرعاع والبسطاء كتولستوى
ومكسيم غوركى . وقد يمر اليوم واليومان بدون أن أغسل وجهى
ويدي ، وهكذا كان بيتهوفن وولت وثمان . وللعجب إنى أستريح لسماع
أخبار النساء وما يفعلنه فى غياب أزواجهن كبوكاشيو وريالى ، أما عطشى
إلى الخمره فيضارع عطش نوح وأبى نواس ودى موسى ومارلو . وأما
مجامعتى للمآكل الشهية والموائد المرصوفة بالألوان المتنوعه ، فتقارن نهم
بطرس الأكبر والأمير بشير الشهابى .

ووقف سليم أفندى دقيقه عن مخاطبه نفسه ، ثم لمس جبهته بأطراف
بنانه وزاد قائلا : هذا أنا . هذه هى حقيقتى . فأنا مجموع صفات كان
حائزًا عليها أعظم الرجال من بدء التاريخ إلى يومنا هذا . وفتى جامع لهذه
المزايا لا بد أن يفعل شيئًا عظيمًا فى هذا العالم .

« رأس الحكمة معرفة الذات . وأنا قد عرفت نفسى فى هذه الليلة ،
ومنذ الليلة سأبتدىء بالعمل العظيم الذى انتدبتنى إليه فكرة هذا العالم
بوضعها فى أعماق عناصر متعددة متباينه . رافقت عظماء البشر من نوح
إلى سقراط إلى بوكاشيو إلى أحمد فارس الشدياق . أنا لا أدرى ما هو
العمل العظيم الذى سأقوم به ولكن رجلا جمع فى شخصه الهيولى وذاته
المنعوية ما أنا جامع لهو من معجزات الأيام ومبتكرات الليالى .. لقد

عرفت نفسي نعم . والآلهة قد عرفت نفسي فلتحى نفسي ولتعيش ذاتي
وليبقى الكون كونًا حتى تتم أعمالى » .

ومشى سليم أفندى فى تلك الغرفة ذهابًا وإيابًا وسيماء البشر على
سحته القبيحة ، وهو يردد بصوت يأتلف بنبراته مواء القطط بقلقلة
العظام بيت أبى العلاء القائل :

لانى وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل
وبعد ساعة كان صاحبنا مضجعًا بملابسه المشوشة على سرير
المشقلب وغطيطه يملأ فضاء ذلك الحى بنغمة أدنى إلى جمعجة الطاحون
منها إلى صوت ابن آدم .

* * *

العاصفة

١

كان يوسف الفخرى في الثلاثين من عمره عندما ترك العالم وما فيه وجاء ليعيش وحيداً متزهداً صامتاً في تلك الصومعة المنفردة القائمة على كتف وادى قاديشا في شمال لبنان .

وقد اختلف سكان القرى المجاورة في أمره ، فمنهم من قال « هو ابن أسرة شريفة مثرية وقد أحب امرأة فخانت عهده فهجر الديار وطلب الخلوّة توصلًا إلى السلوان » . ومنهم من قال — « هو شاعر خيالي قد انصرف عن ضجة الاجتماع ليدون أفكاره وينظم عواطفه » ، ومنهم من قال — « هو متصوف متعبد قد اقتنع بالدين دون الدنيا . » ومنهم من اكتفى بقوله — « هو مجنون » .

أما أنا فلم أكن من رأى هذا ولا ذاك لعلمي أن في داخل الأرواح أسراراً غامضة لا تكشفها الظنون ولا ييوح بها التخمين ، غير أنى كنت أتمنى لقاء هذا الرجل الغريب وأشتهى محادثته . وقد حاولت مرتين التقرب إليه لأستطلع حقيقته وأستفسر مقاصده وأمانيه ، فلم أظفر منه سوى بنظرات حادة وبعض ألفاظ تدل على الجفاء والبرودة والترفع .

(العواصف)

ففى المرة الأولى ، وقد لقيته سائراً بقرب غابة الأرز ، حيثه بأحسن
ماحضرنى من الكلام فلم يرد التحية إلا بهز رأسه ثم تحول عنى مسرعاً .
وفى المرة الثانية وجدته واقفاً فى وسط كرمه صغيرة بقرب صومعة
فدنوت منه قائلاً : « قد سمعت بالأمس أن هذه الصومعة بناها ناسك
سريانى فى القرن الرابع عشر ، فهل لك علم بذلك يا سيدى ؟ » .
فأجاب بلهجة خشنة « لا أعلم من بنى هذه الصومعة ولا أريد أن
أعلم » . ثم أدار لى ظهره وزاد ساخراً : « لماذا تسأل جدتك فهى أقدم
عهداً وأكثر علماً بتاريخ هذه الأودية ؟ » . فتركته مكسوفاً نادماً على
تطفلى .

وهكذا مر عامان وحياة هذا الرجل المكتنفة بالأسرار تراود خيالى
وتتأيل مع أفكارى وأحلامى .

٢

ففى يوم من أيام الخريف وقد كنت متجولاً بين تلك التلوس
والمحدرات المجاورة لمزرعة يوسف الفخرى ، فاجأتنى العاصفة
بأهوائها وأمطارها وأخذت تتلاعب بى مثلما يتلاعب البحر الهائج
بمركب كسرت الأمواج دفته ومزقت الريح شراعه ، فتحولت نحو
الصومعة قائلاً فى نفسى — هذه فرصة موافقة لزيارة هذا المتنسك ،
وستكون العاصفة عذرى وأثوابى المبللة شفيعى .
بلغت الصومعة وأنا فى حالة يرثى لها ، ولم أطرق الباب حتى ظهر

أمامي الرجل الذي طالما تشوقت إلى لقائه حاملاً بيده طائراً مهشم الرأس منبوش الريش وهو يخلج كأنه على آخر رمق من الحياة . فقلت بعد أن حيينه « اعذرني يا سيدى على محيبي إليك في هذه الحالة ، ولكن العاصفة شديدة وأنا بعيد عن المنازل » .

فتفرس في عابساً وأجاب بصوت يساوره الاستنكاف : « الكهوف كثيرة في هذه النواحي وقد كان بإمكانك الالتجاء إليها »
قال هذا وهو يلامس رأس الطائر بانعطاف لم أر مثله في حياتي ، فعجبت لم رأى الضدين — الرأفة والخشونة في وقت واحد وتحيرت في أمرى . وكأنه قد علم بما يخالج ضميرى فنظر إلى نظرة استيضاح واستعلام ثم قال : « إن العاصفة لاتأكل اللحوم الحامضة ، فلم تخافها وتهرب منها ؟ » .

فأجبت : « العاصفة لاتحب الحوامض ولا الموالح ولكنها تميل إلى الرطب البارد ، ولا أشك بأنها ستجدني لقمة لذيدة إذا قبضت عليّ ثانية » .

فقال وقد انفرجت ملامحه قليلا : « لو مضغتك العاصفة لقمة لحصلت على شرف رفيع لا تستحقه » .

فأجبت : « نعم يا سيدى ، ولقد جمت إليك هارباً من العاصفة لكى لانال ذلك الشرف الذى لا أستحقه » .

فحول وجهه محاولاً إخفاء ابتسامة ضئيلة . ثم أشار نحو مقعد خشبى بقرب موقد تتأجج فيه النار وقال : « اجلس وجفف أثوابك » .

فجلست بقرب النار شاكراً ، وجلس هو قبالتى على مقعد محفور في

الصخر وأخذ يغمس أطراف أصابعه بمزيج زيتي في طاسة فخارية ويدهن بها جانح الطائر ورأسه وقال : « هذا الشحور حمله الريح فهبط على الصخور بين حى وميت » .

فقلت : « والريح قد حملتني أيضاً إلى بابك يا سيدى ، وأنا للآن لا أدرى ما إذا كانت قد كسرت جانحى أو هشمت رأسى » .

فنظر إلى وجهى بشيء من الاهتمام وقال : « حبذا لو كان للإنسان بعض أطباع الطيور . حبذا لو كسرت العواصف أجنحة البشر وهشمت رؤوسهم . ولكن الإنسان مطبوع على الخوف والجبانة ، فهو لا يرى العاصفة مستيقظة حتى ينجبى في شقوق الأرض ومغاورها » .

فقلت وقصدى متابعة الحديث : « نعم إن للطير شرفاً ليس للإنسان ، فالإنسان يعيش في ظلال شرائع وتقاليد ابتدعها لنفسه . أما الطيور فتحيا بحسب الناموس الكلى المطلق الذى يسير بالأرض حول الشمس » .

فلمعت عيناه وانبسبت ملامحه كأنه وجد بى تلميذاً سريع الفهم ثم قال : « أحسنت ، أحسنت فإذا كنت تعتقد حقيقة بما تقول فاترك الناس وتقاليدهم الفاسدة وشرائعهم التافهة ، وعش كالطيور في مكان بعيد خال إلا من ناموس الأرض والسماء » .

فقلت : « إني اعتقد بما أقول يا سيدى » .

فرفع يده وقال بصوت يمازجه التعنت والتصلب : « الاعتقاد شيء والعمل به شيء آخر . كثيرون هم الذين يتكلمون كالبحر أما حياتهم فشبيهة بالمستنقعات . كثيرون هم الذين يرفعون رؤوسهم فوق قمم

الجبال أما نفوسهم فتبقى هاجعة في ظلمة الكهوف .
قال هذا ولم يدع لي فرصة للكلام بل قام من مكانه ومدد الشحورور
على جبة قديمة بقرب النافذة . ثم تناول رزمة من القضبان اليابسة وألقاها
في الموقدة قائلاً : « اخلع حذاءك وجفف قدميك فالرطوبة أضرت
بالإنسان من كل شيء آخر . جفف أثوابك جيداً ولا تكن خجولاً » .
فاقتربت من النار والبخار يتصاعد من أثوابي الرطبة ، أما هو فوقف
في باب الصومعة محدقاً بالفضاء الغضوب .
وبعد هنيهة سأله قائلاً : « هل جئت إلى هذه الصومعة منذ زمن
بعيد ؟ » .

فأجاب بدون أن يلتفت نحوي : « جئت إلى هذه الصومعة عندما
كانت الأرض خربة وخالية وعلى وجه الغمر ظلمة وروح الله يرف على
وجه المياه » .

فسكت قائلاً في سري : « ما أغرب هذا الرجل وما أصعب السبيل
إلى حقيقته . ولكن لا بد من محادثته ومعرفة خفايا روحه ، وسوف أصبر
حتى يتحول شموخه إلى اللين والدعة » .



وغمر الليل تلك البطاح بردائه الأسود ، ونمت العاصفة وغزرت
الأمطار حتى خيل لي أن الطوفان قد جاء ثانية ليبيد الحياة ويطهر الأرض
من أدرانها . وكأن ثورة العناصر قد ولدت في نفس يوسف الفخرى

تلك الطمأنينة التي تجيء في بعض الأحيان مظهراً لرد الفعل فتحول نفوره منى إلى الاستئناس بى ، فقام وأشعل شمعتين ثم وضع أمامى جرة طافحة بالخمر وطبقاً عليه الخبز والجبن والزيتون والعسل وبعض الأثمار المجففة ، ثم جلس قبالتى وقال بلطف : « هذا كل ما عندى من الزاد فتفضل يا أخى وشاركنى به »

تناولنا العشاء صامتين صاغين إلى ولولة الريح وبكاء الأمطار ، غير أننى كنت أتبصر وجهه بين اللقمة والأخرى ، مستفسراً ملامحه عن غوامضه ، سائلاً معانيه عن الميول والمقاصد المستحكمة بوجدانه . وبعد أن رفع المائدة تناول من جانب الموقد إبريقاً نحاسياً وصب منه قهوة صافية زكية الرائحة فى فناجين ، ثم فتح علبة مفعمة بلقائف التبغ وقال بهدوء « تفضل يا أخى » .

فأخذت لفافة رافعاً بيدي فنجان القهوة وأنا لا أصدق ما تراه عينى . فنظر لى وكأنه قد سمعنى مفكراً فابتسم هازماً رأسه ثم قال بعد أن أشعل لفافة وشرب قليلاً من القهوة : أنت بالطبع تستغرب وجود الخمر والتبغ والقهوة فى هذه الصومعة . وقد تستغرب وجود الطعام والفراش ، وأنا لا ألومك فأنت واحد من الكثيرين الذين يتوهمون أن البعد عن البشر يستوجب البعد عن الحياة من الملذات الطبيعية والمسرات البسيطة .

فأجبت : « نعم يا سيدى لقد تعودنا الاعتقاد بأن من يتنحى عن العالم ليعبد الله يترك وراءه كل ما فى العالم من الملذات والمسرات ، ليعيش وحده متنسكاً متقشفاً مستكفياً بالماء والأعشاب » .

فقال : « لقد كان بإمكانى عبادة الله وأنا بين خلقه ، لأن العبادة لا

تستلزم الوحدة والانفراد . وأنا لم أترك العالم لأجد الله لأننى كنت أجده فى بيت أبى وفى كل مكان آخر ، ولكننى هجرت الناس لأن أخلاقى لا تنطبق على أخلاقهم ، وأحلامى لا تتفق مع أحلامهم ، تركت البشر لأننى وجدت نفسى دولاباً يدور بمنة بين دواليب تدور يساراً ، تركت المدينة لأننى وجدتها شجرة مسنة فاسدة قوية هائلة عروقتها فى ظلمة الأرض وأعصانها تتعالى إلى ماوراء الغيوم ، أما أزهارها فمطامع وشرور وجرائم ، وأما أثمارها فويل وشقاء وهموم ، ولقد حاول بعض المصلحين تطعيمها وتغيير طبيعتها فلم يفلحوا بل ماتوا قانطين مضطهدين مغلوبين على أمرهم » .

واتكأ إذ ذاك إلى جانب الموقد وكأنه قد وجد لذة فى تأثير كلامه على ، فرفع صوته أكثر من ذى قبل وزاد قائلاً : — لا ، لم أطلب الوحدة للصلاة والتنسك لأن الصلاة ، وهى أغنية القلب ، تبلغ أذان الله وإن تصاعدت ممزوجة بصياح ألوف الألوف ، وأما التنسك وهو قهر الجسد وإماتة رغائبه ، فمسألة لا مكان لها فى دينى ، لأن الله بنى الأجسام هياكل للأرواح ، وعلينا أن نحافظ على هذه الهياكل لتبقى قوية نظيفة لائقة بالألوهية التى تحمل فيها . لا يا أخى لم أطلب الوحدة للصلاة والتكشف بل طلبتها هاربا من الناس وشرائعهم وتعاليمهم وتقاليدهم وأفكارهم وضجتهم وعويلهم . طلبت الوحدة لكى لا أرى أوجه الرجال الذين يبيعون نفوسهم ليشتروا بأثمانها ما كان دون نفوسهم قدراً وشرفاً. طلبت الانفراد لكى لا ألتقى بالنساء اللواتى يسرن ممدودات الأعناق غامزات العيون على ثغورهن ألف ابتسامة وفى أعماق قلوبهن غرض واحد .

طلبت الانفراد لكي لا أجالس ذوى « النصف معرفة » الذين يصرون في المنام خيال العلم فيتخيلون أنهم أصبحوا من المدارك بمقام النقطة من الدائرة ، ويرون في اليقظة أحد أشباح الحقيقة فيتوهمون أنهم قد امتلكوا جوهرها الكامل المطلق . طلبت الخلوة لأننى مللت بمجاملة الخشن الذى يظن اللطف ضربات من الضعف والتساهل نوعاً من الجبانة ، والترفع شكلاً من الكبرياء . طلبت الخلوة لأن نفسى تعبت من معايشة الممولين الذين يظنون أن الشمس والأقمار والكواكب لا تطلع إلا من خزائهم ولا تغيب إلا فى جيوبهم ، ومن الساسة الذين يتلاعبون بأمانى الأمم وهم يذرون فى عيونها الغبار الذهبى . يملأون آذانهم برنين الألفاظ ، ومن الكهان الذين يعظون الناس بما لا يتعظون به ويطلبون منهم ما لا يطلبونه من نفوسهم .. طلبت الوحدة والانفراد لأننى لم أحصل على شئ من يد بشرى إلا بعد أن دفعت ثمنه من قلبى . طلبت الوحدة والانفراد لأننى سمعت ذلك البناء العظيم الهائل المدعو حضارة . ذلك البناء الدقيق الصنع والهندسة القائم فوق رابية من الجماجم البشرية .. طلبت الوحدة لأن فى الوحدة حياة للروح والفكر والقلب والجسد . طلبت البرية الخالية لأن فيها نور الشمس ورائحة الأزهار وأنغام السواقي . طلبت الجبال لأن فيها يقظة الربيع وأشواق الصيف وأغانى الخريف وعزم الشتاء . جئت إلى هذه الصومعة المنفردة لأننى أريد معرفة أسرار الأرض والدنو من عرش الله .

وسكتت متنفساً الصعداء كأنه ألقى حملاً ثقيلاً عن عاتقه وقد تلمعت عيناه بأشعة غريبة سحرية .

وظهرت على وجهه أمارات الأنفة والإرادة والقوة .
ومرت بضع دقائق وأنا أنظر إليه مسروراً بظهور ما كان محجوباً عنى
ثم خاطبته قائلاً : « أنت مصيب فى كل ما قلته ولكن ألا ترى يا سيدى
أن بتشخيصك أمراض الاجتماع وأوصابه قد أنبت لى أنك أحد الأطباء
الماهرين ، وأنه لا يجدر بالطبيب الإعراض عن العليل قبل أن يشفى أو
يموت ؟ إن العالم بحاجة ماسة لى أمثالك وليس من العدل أن تعتزل عن
الناس وأنت قادر على نفعهم » .

فحدق لى هنيهة ثم قال بلهجة ملؤها القنوط والمرارة : « منذ البدء
والأطباء يحاولون إنقاذ العليل من علته . فمنهم من جاء بالمباضع ومنهم
من جاء بالأدوية والمساحيق ، ولكنهم ماتوا جميعاً بدون رجاء ولا أمل .
وياليت عليل الدهر يكتفى بملازمة مضجعه القذر وموانسة قروحه
المزمنة ، ولكنه يمد يده من بين اللحف ويقبض على عنق كل من يزوره
ممرضاً ويخنقه . والأمر الذى يغيظنى ويحول الدم فى عروقى لى نار محرقة
هو أن ذلك العليل الخبيث يقتل الطبيب ثم يعود ويغمض عينيه قائلاً
لنفسه : « لقد كان بالحقيقة طبيباً عظيماً » .. لا يا أخى . ليس بين
الناس من يستطيع أن ينفع الناس ، فالخارث وإن كان حكيماً ماهراً لا
يقدر على استنبات حقله فى أيام الشتاء .

فأجبت قائلاً : « قد يمر شتاء العالم يا سيدى ، ويحجى بعده ربيع بهى
جميل فتظهر الأزهار فى الحقول وترنم الجداول فى الأودية .
فقطب ما بين عينيه متنهداً وبصوت تعانقه الكآبة قال : « ليت
شعرى هل قسم الله حياة الإنسان — وهى الدهر بكامله — لى فصول

تشابه فصول السنة بمصيرها وتتابعها ؟ هل يظهر على سطح الأرض بعد ألف ألف عام طائفة من البشر تحيي بالروح والحق — هل يأتي زمن يتمجد فيه الإنسان فيجلس عن يمين الحياة فرحاً بتور النهار وطمأنينة الليل ؟ هل يتم ذلك يا ترى — هل يتم بعد أن تشبع الأرض من لحوم البشر وترتوى من دمائهم ؟ .

وانتصب إذ ذاك واقفاً رافعاً يمينه نحو العلاء كأنه يشير إلى عالم غير هذا العالم : « تلك أحلام بعيدة وليست هذه الصومعة منزلاً للأحلام . لأن ما أعلمه يقيناً يشغل كل فسحة وكل قرنة فيها ، بل يشغل كل مكان في هذه الأودية وهذه الجبال . أما ما أعلمه يقيناً فهو هذا — أنا كائن موجود ، وفي أعماق وجودي جوع وعطش ، ولى الحق أن أتناول خبز الحياة وخمرها من الآنية التي أصنعها بيدي . من أجل ذلك تركت موائد الناس وولائمهم وجئت هذا المكان وسأبقى فيه حتى النهاية » .

وأخذ يمشي ذهاباً وإياباً في وسط تلك الغرفة وأنا أتأمله وأفكر بكلامه وبالعوامل والبواعث التي صورت له الجامعة البشرية بخطوط عوجاء وألوان قاتمة ، ثم استوقفته قائلاً : « إني أحترم أفكارك ومقاصدك يا سيدي ، وأحترم وحدتك وانفرادك غير أنني أعلم — والعلم مجلبة الأسف — أن هذه الأمة التعسة قد فقدت بتنحيك وابتعادك رجلاً موهوباً قادراً على خدمتها وإيقاظها » .

فأجاب — هازأ رأسه : « ليست هذه الأمة إلا كالأمم كافة ، فالناس من جبلة واحدة وهم لا يختلفون بعضهم عن بعض إلا في الظواهر والمظاهر الخارجية التي لا يعتد بها ، فتعاسة الأمم الشرقية هي تعاسة

الأرض بكاملها ، وليس ما تحسبه رقياً في الغرب سوى شبح آخر من أشباح الغرور الفارغ ، فالرياء يظل رياء وإن قلم أظافره ، والغش يبقى غشاً وإن لانت ملامسه ، والكذب لا يصير صدقاً إذا لبس الحرير وسكن القصور ، والخداع لا يتحول إلى أمانة إذا ركب القطار أو اعتلى المنطاد ، والطمع لا ينقلب قناعة إذا قاس المسافات أو وزن العناصر ، والجرائم لا تصبح فضائل وإن سارت بين المعامل والمعاهد . أما العبودية — العبودية للحياة ، العبودية للماضى ، العبودية للتعالم والعوائد والأزياء ، العبودية للأموال فستبقى عبودية وإن طلت وجهها وغيرت ملبسها . العبودية تظل عبودية حتى وإن دعت نفسها حرية . لا يأخى ليس الغربى أرقى من الشرق ولا الشرق أحظ من الغربى ، وما الفرق بينهما إلا كالفرق الكائن بين الذئب والضبع . ولقد نظرت فرأيت مظاهر الاجتماع المتباينة ناموساً أولياً عادلاً يفرق التعاسة والعمارة والجهالة على السواء ، فلا يميز شعباً على شعب ولا يظلم طائفة على طائفة .

فقلت وقد بلغنى الاستغراب حد الالتباس : « إذا فالمدنية باظلة وكل ما فيها باطل » .

فأجاب متهيجاً : « نعم باظلة هي المدنية وباطل كل شيء فيها ، فما الاختراعات والاكتشافات سوى الأعيب يتسلى بها العقل وهو في حالة الملل والتضجر ، وما تقصير المسافات وتمهيد الجبال والأودية والتغلب على البحار والفضاء غير أثمار غشاشة مملوءة بالدخان لا ترضى العين ولا تغذى القلب ولا ترفع النفس . أما تلك الألبان والأحاجى التى يدعونها بالمعارف والفنون فهى قيود وسلاسل ذهبية يجبرها الإنسان

مبتهجاً بلمعائها ورنين حلقاتها ، بل هي أفضاض ابتداء الإنسان بتطويق أعمدها وأسلاكها منذ القدم غير عالم بأنه لا ينتهى من صنعها إلا ويجد نفسه أسيراً مسجوناً في داخلها .. نعم باطلة هي أعمال الإنسان ، وباطلة هي تلك المقاصد والمرامى والمنازع والأمانى ، وباطل كل شيء على الأرض . وليس بين أباطيل الحياة سوى أمر واحد خليق بحب النفس وشوقها وهيامها — ليس هناك غير شيء واحد » .

فقلت : « وما ذلك يا سيدى ؟ » .

فوقف دقيقة ساكناً ثم أغمض أجفانه واضعاً يديه على صدره وقد أشرق وجهه وانبسبت ملامحه ، وبصوت عذب مرتعش قال : هي يقظة في النفس . هي يقظة في عمق أعماق النفس . « هي فكرة تفاجئ وجدان الإنسان على حين غفلة وتفتح بصيرته فيرى الحياة مكتنفة بالأنعام ، محاطة بالهالات ، منتصبه كبرج من النور بين الأرض واللائهية . هي شعلة من شعلات ضمير الوجود تتأجج فجأة في داخل الروح فتحرق ما يحيط بها من الهشيم وتصعد سابحة مرفرفة في الفضاء الواسع . هي عاطفة تهبط على قلب الفرد فيقف مستغرباً مستهجناً كل ما يخالفها ، كارهاً كل شيء لا يجاريها ، متمرداً على الذين لا يفهمون أسرارها . هي يد خفية قد أزال الغشاء عن عيني وأنا في وسط الاجتماع بين أهلى وأصحابى ومواطنى فوقت مندهلا مدهوشاً قائلاً في نفسى : ما هذه الوجوه وما شأن هؤلاء الناظرين إلى وكيف عرفتهم ، وأين لقيتهم ، ولماذا أقيم بينهم ، بل لماذا أجالسهم وأحادثهم ؟ هل أنا غريب بينهم أم هم الغرباء في ديار بنتها الحياة لى وأسلمتني مفاتيحها .. ؟ » .

وسكت فجأة كأن الذكرى رسمت على حافظته صوراً وأشباحاً لا يريد إظهارها ، ثم بسط ذراعيه وقال همساً : « هذا ما حل بي منذ أربع سنوات فتركت العالم وجئت هذه البرية الخالية لأعيش في اليقظة ، متمتعاً بالفكر والعاطفة والسكينة » .

ومشى إذ ذاك نحو باب الصومعة ناظراً إلى أعماق الليل ، ثم هتف كأنه يخاطب العاصفة : « هي يقظة في أعماق النفس فمن يعرفها لا يستطيع إظهارها بالكلام ، ومن لم يعرفها لا ولن يدرك أسرارها » .

٤

ومرت ساعة طويلة ممنطقة بهمس الفكر ونداء العاصفة ويوسف الفخرى يمشى تارة في وسط تلك الحجرة ويقف طوراً في بابها محدقا بالفضاء العابس . أما أنا فبقيت صامتاً شاعراً بتموجات روحه ، مستظهِراً أقواله ، مفكراً بحياته وما وراء حياته من لذة الوحدة وآلامها . وعند انقضاء الهزيع الثاني من الليل اقترب منى ونظر طويلاً إلى وجهي كأنه يريد أن يحفظ في ذاكرته رسم الرجل الذي باح له بسر وحدته وانفراده ، ثم قال ببطء : « أنا ذاهب الآن للتجول في العاصفة . هي عادة أتمتع بلذتها في الخريف وفي الشتاء .. هناك إبريق القهوة واللغائف ، وإن طلبت نفسك الخمر تجدها في الجرة . وإذا شئت النوم تجد اللحف والمساند في تلك القرنة » .

قال هذا والتف بجبة سوداء كثيفة ثم زاد مبتسماً : « أرجوك أن

توصد باب الصومعة عندما تذهب في الصباح لأنتى سأصرف الغد في غابة الأرز » .

ثم سار نحو الباب وتناول من جانبه عكازاً طويلاً وقال : « إذا فاجأتك العاصفة ثانية وأنت في هذه النواحي فلا تتأخر عن الالتجاء إلى الصومعة هذه . ولكننى أرجو أن تعلم نفسك حب العواصف لا الخوف منها .. مساء الخير يا أخى » .
وخرج إلى الليل مسرعاً .

ولما وقفت في باب الصومعة لأرى وجهته كان الظلام قد أخفاه ،
ولكننى بقيت بضع دقائق أسمع وقع قدميه على حصباء الوادى .

٥

جاء الصباح وقد مرت العاصفة وانقشعت الغيوم وظهرت تلك
الصخور والغابات متشحة بنور الشمس ، فتركت الصومعة بعد أن
أقفلت بابها وفي نفسى شيء من تلك اليقظة المعنوية التى تكلم عنها يوسف
الفخرى .

ولكننى لم أبلغ منازل الناس وأرى حركاتهم وأسمع أصواتهم حتى
وقفت قائلاً فى سرى : « نعم إن اليقظة الروحية هى أخلق شىء
بالإنسان ، بل هى الغرض من الوجود . ولكن أليست المدنية بما فيها من
التلبس والأشكال من دواعى اليقظة الروحية ؟ وكيف يا ترى نستطيع
إنكار أمر موجود ونفس وجوده دليل على إثبات صلاحيته . قد تكون

المدينة الحاضرة عرضاً زائلاً ولكن الناموس الأبدى قد جعل الأعراض
سُلماً تنتهى درجاته بالجواهر المطلق .
و لم اجتمع ثانية ييوسف الفخرى لأن الحياة أبعدتنى عن شمال لبنان
في أواخر ذلك الخريف ، فجمت منفيأ إلى بلاد قصية عواصفها داجنة ،
أما التنسك فيها فضرب من الجنون .

الشیطان

كان الخورى سمعان عالماً بدقائق الأمور الروحية ، متبسطاً بالمسائل اللاهوتية ، متعمقاً بأسرار الخطايا العرضية والميتة ، متضلعاً بخفايا الجحيم والمطهر والفردوس .

وكان يتنقل بين قرى شمال لبنان ليعظ الناس ويشفى أرواحهم من أمراض الإثم ، وينقذهم من حبائل الشيطان . فالشیطان كان عدو الخورى سمعان يحاربه ليلاً ونهاراً بلا ملل ولا تعب .

وكان سكان القرى يكرمون الخورى سمعان ويرتاحون إلى ابتیاع عظامه وصلواته بالفضة والذهب ، ويتسابقون إلى إهدائه أطيب ماتمره أشجارهم وأفضل ماتنتبه حقولهم .

ففى عشية يوم من أيام الخريف ، وقد كان الخورى سمعان سائراً فى مكان خال نحو قرية منفردة بين تلك الجبال والأودية ، سمع أنیناً موجعاً آتياً من جانب الطريق فالتفت فإذا برجل عارى الجسم منطرح على الحصباء ونجیع الدم يتدفق من جراح بليغة فى رأسه وصدره ، وهو يقول مستنجداً : أنقذنى : أعنى ! أشفق على فأنا مائت ! » .

فوقف الخورى سمعان محتاراً ونظر إلى الرجل المتوجع ثم قال فى ذاته : « هذا أحد اللصوص الأشقياء ، وأظن أنه قد حاول سلب عابرى الطريق

فغلب على أمره .. هو منازع فإذا مات وأنا بقربه اتهمت بما أنا براء منه .

قال هذا وهمّ ليتابع السير فأوقفه الجريح بقوله : « لا تتركنى : أنت تعرفنى وأنا اعرفك ، أنا مائت لا محالة ! » .

فقال الخورى فى ذاته وقد اصفر وجهه وار تعشت شفتاه : « أظنه أحد المجانين الذين يتوهون فى البرية » . ثم عاد وقال لنفسه : « إن منظر جراحه يخيفنى فماذا عسى أفعل له ! .. إن طبيب النفوس لا يستطيع أن يداوى الأجساد » .

ومشى الخورى بضع خطوات فصاح الجريح بصوت يذيب الجمد قائلا : « اقترب منى . اقترب فنحن أصدقاء منذ زمن بعيد . أنت الخورى سمعان الراعى الصالح وأنا — أنا — لست بلص ولا بمجنون . اقترب منى ولا تدعنى أموت وحيداً فى هذه البرية الخالية . اقترب فأقول لك من أنا » .

فاقترب الخورى سمعان من المنازع وانحنى فوqe متفرساً ، فرأى وجهاً غريب الخطوط يأتلف بين تقاطيعه الذكاء بالدهاء والقباحة بالجمال ، والخبائة بالدمائة ، فترجع إلى الورا وصرخ قائلاً : « من أنت ؟ » . فقال المنازع بصوت خافت : « لا تخف يا أبت فنحن أصدقاء منذ عهد بعيد . أعنى على النهوض وسرى إلى الساقية القرية واغسل جراحى بمنديلك » .

فصرخ الخورى : « قل لى من أنت ، فأنا لا أعرفك ولا أذكر بأننى رأيتك فى حياتى » .

فأجاب الجريج وحشرجة الموت تعانق صوته : « أنت تعلم من أنا ،
فقد لقيتني ألف مرة وشاهدت وجهي في كل مكان . أنا أقرب المخلوقات
إليك ، بل أنا أعز عليك من حياتك » .

فصاح الخورى قائلاً : « أنت كاذب محتال ، وخلق بالمنازعين
الصدق ، فأنا لم أر وجهك في حياتي — قل من أنت وإلا تركتك تموت
مضرجاً بدمائك ! » .

فتحرك الجريج قليلاً وشخص بعيني الخورى وقد ظهرت على شفثيه
ابتسامة معنوية ، وبصوت هادئ ناعم عميق قال : « أنا الشيطان » .
فصرخ الكاهن صوتاً هائلاً ار تعشت له زوايا ذلك الوادى ، ثم نظر
إليه محققاً فرأى أن جسد الجريج ينطبق بتفاصيله ومعالمه على هيئة الأبالسة
في صورة الدينونة المعلقة على جدار كنيسة القرية ، ثم صرخ مرتجفاً :
« لقد أراى الله صورتك الجهنمية ليزيد بك كرهى ، فلتكن ملعوناً إلى أبد
الآبدين ! » .

قال الشيطان : « لا تكن متسرعاً يا أبتاه ، ولا تضيع الوقت بالكلام
الفارغ بل اقترب وضمّد جراحي قبل أن يسيل ما فى جسدى من
الحياة » .

فقال الخورى : « إن أصابعى التى ترفع الذبيحة الربانية فى كل يوم لن
تلمس جسدك المصنوع من مفرزات الجحيم ، فمت ملعوناً بألسنة
الدهور وشفاه الإنسانية لأنك عدو الدهر والعامل على إبادة
الإنسانية » .

فقال الشيطان متملماً : « أنت لا تدري ما تقول ولا تعلم أى ذنب

تقترفه نحو نفسك . اسمع فأخبرك حكايتي .. كنت اليوم سائراً وحدي في هذه الأودية المنفردة ، ولما بلغت هذا المكان التقيت بجماعة من أجلاف الملائكة فهجموا على وضربوني ضرباً مبرحاً ، ولو لم يكن مع أحدهم سيف ذو حدين لفتكت بهم جميعاً . ولكن ماذا يفعل العزل مع المسلح ؟ » .

وقف الشيطان عن الكلام هنيهة واضعاً يده على جرح بليغ في جانبه ، ثم زاد قائلاً : « أما الملاك المسلح وأظنه ميخائيل ، فداهية يحسن ضرب السيف . ولو لم أنطح على الأرض وأمثل دور النزع والموت لما أبقى مني عضواً بجوار عضو آخر » .

فقال الخورى بصوت تعانقه رنة النصر والتغلب : « ليكن اسم ميخائيل مباركاً فقد أنقذ الإنسانية من عدوها الخبيث ! » .

فقال الشيطان : ليست عداوتي للإنسانية أشد سواداً من عداوتك لنفسك ، فأنت تبارك ميخائيل وهو لم يفدك بشيء ، وتجدف على اسمي في ساعة انكساري مع أنني كنت ولم أزل سبباً لراحتك وسعادتك . أتجدد نعمتي وتنكر معروفي وأنت عائش في ظلال كياني ؟ أو لم تتخذ وجودي صناعة لك واسمى دستوراً لأعمالك . هل أغناك ماضى عن حاضري ومستقبلي ؟ هل نمت ثروتك إلى حد لا تحتمل معه الزيادة ؟ ألا تعلم أن زوجتك وبنيك وهم كثيرون يفقدون رزقهم بفقدى بل يموتون جوعاً يموتى ؟ ماذا تفعل لو حكم القضاء باضمحلالى ، وأية صناعة تحسنها إذا أبادت الأرياح اسمى ؟ منذ خمس وعشرين سنة وأنت تسير متجولاً بين قرى هذا الجبل لتحذر الناس من حباتلى وتبعدهم عن

مصائبى وهم يتتاعون مواعظك بأموالهم وغلة حقوقهم ، فأى شىء يتتاعون منك غداً إذا علموا أن عدوهم الشيطان قد مات ، وأنهم أصبحوا فى مأمن من حباله ومعاقله ، وأية وظيفة يسندها القوم لك إذا ألغيت وظيفة محاربة الشيطان بموت الشيطان ؟ ألا تعلم وأنت اللاهوتى المدقق أن وجود الشيطان قد أوجد أعداءه الكهان ، وأن تلك العداوة القديمة هى اليد الخفية التى تنقل الفضة والذهب من جيوب المؤمنين إلى جيوب الوعاظ والمرشدين ؟ ألا تعلم وأنت العالم الخبير أنه بزوال السبب يزول المسبب ؟ إذا كيف ترضى بموتى وبموتى تفقد منزلتك وينقطع رزقك ويكف الخبز عن أفواه زوجتك وبنيك ؟

وسكت الشيطان دقيقة وقد تبدلت فى وجهه دلائل الاستعطاف بأمارات الاستقلال ، ثم عاد فقال : « ألا فاسمع أيها الغيبى المكابر فأريك الحقيقة التى تضم كيانى بكيانك ، وتربط وجودى بوجودك . فى أول ساعة من الزمن وقف الإنسان أمام الشمس وبسط ذراعيه وصرخ للمرة الأولى قائلاً : « ما وراء الأفلاك إله عظيم يحب الخير ! » ثم أدار ظهره للنور فرأى ظله منبسطاً على أديم التراب فهتف قائلاً : « وفى أعماق الأرض شيطان رجيم يحب الشر ! » ثم سار نحو كهفه هامساً فى نفسه : « أنا بين إلهين هائلين ، إله أتنمى إليه ، وإله أحاربه . » ومرت العصور إثر العصور والإنسان بين قوتين مطلقتين ، قوة تصعد بروحه إلى العلاء فيباركها ، وقوة تهبط بجسده إلى الظلمة فيلعنها . غير أنه لم يكن يدرى معانى البركة ولا مبائى اللعنة ، بل كان بينهما كشجرة بين صيف يكسوها وشتاء يعريها . ولما بلغ الإنسان فجر المدنية وهى الألفة البشرية

ظهرت العائلة ثم القبيلة ، فتفرقت الأعمال بتفرق الميول ، وتباينت الصناعات بتباين المشارب والمنازع ، فقام البعض من تلك القبيلة بحراثة الأرض ، وآخرون ببناء المآوى ، وغيرهم بنسج الملابس ، وغيرهم بصهر المعادن . فى ذلك العصر البعيد ظهرت الكهانة فى الأرض وهى الحرفة الأولى التى ابتدعها الإنسان بدون حاجة حيوية أو داع طبيعى إليها .

وقف الشيطان دقيقة عن الكلام ثم قهقه ضاحكاً بصوت ارتعشت له تلك الأودية الخالية .. وكأن الضحك قد أوسع فوهات كلومه فأسند خاصرته بيده متوجعاً ، ثم شخص بالخورى سمعان وزاد قائلاً : « فى ذلك العهد ظهرت الكهانة فى الأرض . وإليك يا أخى كيفية ظهورها ، كان فى القبيلة الأولى رجل يدعى « لاويص » ولا أدرى لماذا اتخذ له هذا الاسم الغريب — وكان لاويص هذا رجلاً ذكياً ، ولكنه كان بطالاً متوانياً يكره حراثة الأرض وبناء المآوى بكرهه رعاية المواشى وصيد الوحوش ، بل كان يكره كل عمل يستلزم السواعد أو الحركة الجسدية . ولما كان الرزق فى ذلك العهد لا يأتى إلا بالعمل كان لاويص يبيت أكثر لياليه خاوى الجوف فارغه . فى ليلة من ليالى الصيف وأفراد تلك القبيلة ملتشمون حول كوخ زعيمهم يتحدثون بما تى يومهم ويترقبون النعاس ، انتصب أحدهم فجأة وأشار نحو القمر وصرخ بخوف قائلاً : « انظروا نحو إله الليل فقد شحب وجهه واضمحل بهأوه وتحول إلى حجر أسود معلقاً بقبة السماء . فشخص القوم بالقمر ثم ضجوا صارخين ، متبیین ، مرتعشين ، خائفين ، كأن أيدى الظلام قد قبضت على قلوبهم

لأنهم رأوا إله لياليهم يتحول ببطء إلى كرة قائمة وقد تغير لذلك وجه الأرض وانحجبت البطح والأودية وراء نقاب أسود . فتقدم إذ ذاك لاويص وكان قد شهد الخسوف والكسوف مرات عديدة في سابق حياته ، فوقف في وسط الجماعة رافعاً ذراعيه وبصوت أودعه كل مافي ذكائه من التصنع والاحتيال صاح قائلاً : « اسجدوا وصلوا مبتلين وعفروا وجوهكم بالتراب ، فإنه الشر المظلم يصارع إله الليل المنير ، فإذا غلبه متنا وإذا غلب بقينا عائشين . اسجدوا وصلوا وعفروا وجوهكم بالتراب بل أغمضوا أجفانكم ولا ترفعوا رؤوسكم نحو السماء ، لأن من يشاهد صراع إله النور وإله الشر يفقد بصره ورشده ، ويظل مجنوناً وأعمى إلى نهاية أيامه . خروا راکعين وساعدوا بقلوبكم إله النور على عدوه » .

وظل لاويص يتكلم بهذه اللهجة مبتدعاً من خياله ألفاظاً جديدة غريبة ، مردداً كلمات ماسمعوها قبل تلك الليلة . حتى إذا مامر نصف ساعة وقد عاد القمر إلى سابق كماله وجلاله رفع لاويص صوته عن ذى قبل وقال بلهجة تعانقها رنة الغبطة والسرور : « قفوا الآن وانظروا ، فقد تغلب إله الليل على عدوه الشرير وتابع سيره بين الكواكب والنجوم . واعلموا أنكم بركو عكم وابتها لكم قد نصرتموه وسررتموه ، ولذلك ترونه الآن أبهى نوراً وأشد لمعاناً » .

فوقف القوم وشخصوا بالقمر فإذا به قد عاد ساطعاً منيراً ، فتحول خوفهم إلى طمأنينة واضطرابهم إلى مسرة وأخذوا يقفزون راقصين ويصرخون مهللين ، ويضربون بنبايتهم صفائح الحديد والنحاس

مفعمين خلأيا ذلك الوادى بعويلهم وضجيج لهجتهم .
فى تلك الليلة استدعى زعيم القبيلة لاويص وقال له : « لقد أتيت فى
هذه الليلة بما لم يأت به بشرى قبلك ، وعلمت من أسرار الحياة ما لا يعلمه
بيننا سواك . فافرح وابتهج لأنك ستكون من الآن وصاعداً صاحب
المقام الأول من بعدى فى هذه القبيلة . فأنا أشد الرجال بطشاً وأقواهم
ساعداً ، وأنت أكثر الرجال معرفة وأكثرهم حكمة ، بل أنت الوسيط
بينى وبين الآلهة تبلغنى مشيئتهم وتبين لى أعمالهم وأسرارهم وتعلمنى ما
يجب أن أفعله لأكون حاصلًا على رضائهم ومحبتهم » .

فأجاب لاويص : « كل ما يقوله لى الآلهة فى الحلم أقوله فى اليقظة ،
وما أراه من مآتهم أظهره لك ، فأنا الوسيط بينك وبين الآلهة » .
فسر الزعيم ووهب لاويص فرسين وسبعة عجول وسبعين كبشاً
وسبعين شاة وقال له : « سوف بينى لك رجال القبيلة بيتاً يماثل بيتى ،
وسيهدونك فى نهاية كل موسم قسماً من غلة الأرض وأثمارها فتعيش
سيداً مطاعاً مكرماً » .

وانتصب إذ ذاك لاويص للانصراف ، فأوقفه الزعيم وسأله قائلاً :
« ولكن من هو هذا الإله الذى تدعوه بإله الشر ؟ من هو هذا الإله الذى
يجسر أن يصارع إله الليل البهيمى . إننا لم نسمع به قط ولا علمنا
بوجوده ؟ » .

ففرح لاويص جبهته وأجاب قائلاً : « اعلم يا سيدى أنه فى قديم
الزمان وذلك قبل ظهور الإنسان كان جميع الآلهة يعيشون بسلام ومودة
فى مكان قصى وراء الحجر . وكان إله الآلهة ، وهو والدهم يعلم ما لا

يعلمونه ويفعل مالا يستطيع أحدهم أن يفعله ، ويحفظ لنفسه بعض الأسرار الربانية الكائنة وراء النواميس الأزلية . ففي العصر السابع من الدهر الثاني عشر تمردت روح « بعطار » وهو يكره الإله الأعظم فوقف أمام أبيه وقال : « لماذا تحفظ لنفسك السلطة المطلقة على جميع المخلوقات حاجباً عنا أسرار الأكوان والنواميس والدهور . أو لسنا أبناءك وبناتك ومشاركين لك بقوتك وخلودك ؟ » .

فغضب إله الآلهة وأجاب : « سوف أحفظ لنفسى القوة الأولية والسلطة المطلقة والأسرار الأساسية إلى أبد الدهر ، فأنا البدء وأنا النهاية .

فقال بعطار : « إن لم تقاسمنى قوتك وجبروتك تمردت أنا وأبنائى وأحفادى على قوتك وجبروتك » .

فانتصب إذ ذاك إله الآلهة فوق عرشه وقد امتشق المجرة سيفاً وقبض على الشمس ترساً وبصوت ار تعشت له جوانب العالم صرخ قائلاً : « ألا فاهبط أيها المتمرد الشرير إلى العالم الأدنى حيث الظلمة والشقاء ، وابق هناك منفيّاً شريداً تائهاً حتى تنقلب الشمس رماداً وتتحول الكواكب هباءً منثوراً » .

في تلك الساعة هبط بعطار من مقر الآلهة إلى العالم الأدنى حيث تقيم الأرواح الخبيثة . وقد أقسم بسر خلوده أنه سيصرف الدهور محارباً والده وإخوته واضعاً الأشرار لكل محب لولده أو مرید لإخوانه .

فقال الزعيم وقد تقلصت جبهته واصفر وجهه : « إذن فاسم إله الشر بعطار ؟ » .

فأجاب لاويص : « كان اسمه بعطار إذ كان في مقر الآلهة ، ولكنه قد اتخذ له بعد هبوطه إلى العالم الأدنى أسماء أخرى : « بعلزبول وإبليس وسنطائيل وبليال وزميال وأهريمان وماره وأبدون والشيطان — وأشهرها الشيطان » .

فردد الزعيم لفظة الشيطان مرات بصوت مرتعش يشابه حفيف الأغصان اليابسة لمرور الهواء ثم قال : « ولماذا يا ترى يكره الشيطان البشر بكره الآلهة ؟ » .

فأجاب لاويص : « إن الشيطان يكره البشر ويعمل على إبادتهم لأنهم من نسل إخوانه وأخواته » .

فقال الزعيم محتاراً : « إذا فالشيطان هو عم البشر وخالمهم » .

فأجاب لاويص وقال بلهجة لاتخلو من التشويش والالتباس : « نعم يا سيدي ، ولكنه عدوهم الأكبر ومناظرهم الحقود ، يملأ أيامهم بالتعاسة ولياليهم بالأحلام المخيفة . فهو القوة التي تحول العاصفة نحو أكواخهم ، وتحرق بالقيظ مزارعهم ، وتقرض بالأوبئة مواشيهم ، وتلامس بالأمراض أجسادهم . هو إله قوى شرير خبيث يضحك لشقائنا ويكتسب لأفراحنا ، فعلينا أن نتفحص أطباعه لنتقى شره ، وندرس أخلاقه لنبتعد عن سبيل احتياله .

فأسند الزعيم رأسه إلى نبوته وهمس قائلاً : « قد عرفت الآن ما كان خافياً عنى من أسرار تلك القوة الغريبة التي تحول العاصفة نحو منازلنا وتقرض بالأوبئة مواشيها . وسوف يعرف البشر كافة ما أعرفه الآن قيطوبونك باللاويص لأنك أنت لهم خفايا عدوهم القوى وعلمتهم كيف

يتقون حباته » .

وانصرف لاويص من أمام زعيم القبيلة وذهب إلى مرقده فرحاً بذكاء فكرته ، نشواناً بخمرة خياله . أما الزعيم ورجاله فقد صرفوا تلك الليلة يتقبلون على مرآقد محاطة بالأشباح المخيفة والأحلام المزعجة .

ووقف الشيطان الجريح دقيقة عن الكلام والخورى سمعان يحدق فيه وفى عينيه جمود الحيرة والاستغراب ، وعلى شفثيه ابتسامة الموت .

ثم استأنف الشيطان الكلام قائلاً : « كذا ظهرت الكهانة فى الأرض ، وهكذا كان وجودى سبباً لظهورها ، وقد كان لاويص أول من اتخذ عداوتى صناعة . وقد راجت هذه الصناعة بعد موت لاويص بواسطة أبنائه وأحفاده فنمت وتدرجت حتى صارت فناً دقيقاً مقدساً لا يتخذه غير أصحاب العقول المختمة والنفوس الشريفة والقلوب الطاهرة والخيال الواسع . ففى بابل كان الناس يسجدون سبع مرات أمام الكاهن الذى يحاربنى بتعازيمه ، وفى نينوى كانوا ينظرون إلى الرجل الذى يدعى معرفة أسرارى وخفاياى كحلقة ذهبية بين الآلهة والبشر ، وفى ثيب كانوا يلقبون من يصارعنى بابن الشمس والقمر ، وفى بابلس وأفسس وأنطاكية كانوا يضعون أبناءهم وبناتهم لإرضاء لخصمى ، وفى أورشليم ورومة كانوا يضعون أرواحهم فى قبضة من يتفنن فى كرهى وإبعادى فى كل مدينة ظهرت أمام وجه الشمس . كان اسمى محوراً لدوائر الدين والعلم والفلسفة ، فالهياكل لم تقم إلا فى ظلالى ، والمعاهد والمدارس لم تظهر بغير مظاهرى ، والقصور والبروج لم ترتفع إلا برفعة منزلتى . فأنا العزم الذى يولد العزم فى البشر ، وأنا الفكرة التى

تستنبت الحيلة فى الأفكار ، وأنا اليد التى حركت أيدى الناس . أنا الشيطان الأزلى الأبدى : أنا الشيطان الذى يحاربه الناس ليطلوا عائشين . فإذا كفوا عن منازلتي يوقف الخمول أفكارهم ويميت الكسل أرواحهم وتفنى الراحة أجسادهم . أنا الشيطان الأزلى الأبدى ، أنا عاصفة هوجاء خرساء أهب فى أدمغة الرجال وصدور النساء وأجرف أمياهم إلى الأديرة والصوامع ليمجدونى بخوفهم منى ، أو إلى منازل البغى والخلاعة ليفرحونى باستسلامهم إلى مشيقتى . فالراهب الذى يصلى فى سكينه الليل لكى أبتعد عن مضجعه هو كالمسمومة التى تنادىنى لكى أقرب من مضجعهما . أنا الشيطان الأزلى الأبدى . أنا بانى الأديرة والصوامع على أسس الخوف ، وأنا مقيم الخمارات وبيوت الفحش على أسس الشهوة واللذة . فإن زال كيانى زال الخوف واللذة من العالم . وبزواهما تضمحل الميول والأمانى فى القلب البشرى فتصبح الحياة خالية مقفرة باردة كقيثارة مقطعة الأوتار مكسرة الجوانب . أنا الشيطان الأزلى الأبدى . أنا موحى الكذب والتميمة والاعتياب والغش والسخرية ، فإذا انقرضت هذه العناصر فى العالم أصبحت الجامعة البشرية كبستان مهجور لا تنبت فيه سوى أشواك الفضيلة . أنا الشيطان الأزلى الأبدى . أنا أبو الخطيئة وأمها ، فإذا مازالت الخطيئة زال محارباها وزلت أنت أيضاً وزال أبناؤك وأحفادك وزملائك ورفصاؤك . أنا أبو الخطيئة وأمها ، فهل تريد أن تموت الخطيئة بموتى ؟ هل تريد أن تقف الحركة البشرية بوقوف نبضات قلبى ؟ هل تريد أن تمحو السبب لتمحى المسيبات ؟ أنا هو السبب الوضعى فهل تريد أن أموت فى هذه البرية الخالية . أجبنى أيها

اللاهوتى . هل تريد أن تنتهى العلاقة الأولية الكائنة بينك وبينى ؟ » .
وبسط الشيطان ذراعيه وألوى عنقه إلى الأمام وتهد طويلا ، فظهر
بلوته الرمادى المائل إلى الاخضرار كأحد تلك التماثيل المصرية التى أبقاها
الدهر مطروحة على ضفاف النيل . ثم حدق بوجه الخورى سمعان بعينين
مشعشتين كالمسارج وقال : « لقد أنهكنى الكلام وكان الأخرى بى وأنا
جريح منازع أن لا أطيل معك الحديث . ومن العجيب أنى قد استرسلت
بإظهار حقيقة أنت أدرى بها منى ، وبيان أمور هى أدنى إلى صالحك منها
إلى صالحى ، أما الآن فلك أن تفعل ما تشاء . لك أن تحملنى على ظهرك
وتذهب بى إلى منزلك لتداوى جراحى ، أو أن تتركنى فى هذا المكان
لأنزع وأموت » .

وكان الشيطان يتكلم والخورى سمعان يرتعش ويفرك يداً بيده ،
وبصوت تعانقه الحيرة والارتباك قال أنا أعرف الآن ما لم أكن أعرفه منذ
ساعة ، فساح غباوتى . أنا أعلم بأنك موجود فى العالم لكى تجرب
والتجربة هى مقياس يعرف الله بواسطته قدر النفوس البشرية . بل هى
ميزان يستخدمه الله عز وجل ليدرك ثقل الأرواح أو خفتها . أنا أعلم
الآن إذا مت تموت التجربة وبموتها تزول تلك القوى المعنوية التى تجعل
الإنسان أن يكون متحذراً ، بل يزول السبب الذى يقود الناس إلى
الصلاة والصوم والعبادة . يجب أن تحيا لأنك إن قضيت وعرف الناس
يزول خوفهم من الجحيم فيبطلون العبادة ثم يتمرغون بالإثم ، من أجل
ذلك يجب أن تحيا ، لأن بحياتك خلاص الجنس البشرى من الرذيلة . أما
أنا فسوف أضحي كرهى لك على مذبح محبتى للجنس البشرى .

فضحك الشيطان ضحكة تشابه انفجار بركان ثم قال : ما أذكاك وما أبرعك يا حضرة الأب ، وما أعمق معارفك بالأمر اللاهوتية ، فها قد أوجدت بقوة إدراكك سبباً لوجودي لم أكن أعرفه من قبل . والآن وقد فهم كل منا الأسباب الوضعية واللاهوتية التي أوجدتنا في البدء وتوجد الآن ، يجب أن نترك هذا المكان . اقترب يا أخى ! تعال واحملى إلى بيتك فأنا لست بثقيل الجسم . ها قد غمر الليل البطاح بعد أن أهرقتُ نصف دمي على حصباء هذا الوادي . فاقترب الخورى سمعان من الشيطان وقد شمر عن ساعديه وشكل أطراف عباءته بحزامه ، ورفع الشيطان فوق ظهره ومشى نحو الطريق .

بين تلك الأودية المغمورة بالسكون ، الموشاة بنقاب الليل ، سار الخورى سمعان نحو قريته منحني الظهر تحت هيكل عار وقد تلطخت ملابسه السوداء ولحيته المسترسلة بقطرات الدم السائلة من كلومه .

الصلبان

- المكان : منزل يوسف مسرة في بيروت .
- الزمان : ليلة من ليالى الخريف سنة ١٩٠١ .

الأشخاص :

- بولس الصلبان : موسيقى وأديب .
 - يوسف مسرة : كاتب وأديب .
 - الآنسة هيلانة مسرة : شقيقة يوسف .
 - سليم معوض : شاعر وعواد .
 - خليل بك تامر : موظف في الحكومة .
- يرفع الستار عن قاعة حسنة في منزل يوسف مسرة مفعمة بالكتب والأوراق . خليل بك تامر يدخن بالنارجيلة . الآنسة هيلانة تطرز . يوسف مسرة يدخن لفافة .
- خليل بك (مخاطباً يوسف مسرة) : قد قرأت اليوم مقالتك في الفنون الجميلة وتأثيرها على الأخلاق ، وقد أعجبتني كثيراً . ولولا صبغتها الإفرنجية لكانت خير ما كتب في الموضوع . أنا يا مسرة أفندى من الذين يرون أن تأثير الآداب الغربية على لغتنا من الأمور المضرة .
- يوسف مسرة (مبتسماً) : قد يكون الحق معك يا صديقي ، ولكن

بارتدائك الملابس الإفريقية ، وبتناولك الطعام بآنية إفريقية ، وبجلوسك على مقاعد إفريقية ، عارضت ذاتك بذاتك . وفوق كل ذلك أنت أكثر ميلا إلى مطالعة الكتب الإفريقية منك إلى مطالعة الكتب العربية .

خليل بك : ليس لهذه الأمور السطحية من علاقة بالآداب والفنون . يوسف مسرة : نعم هناك علاقة حيوية وضعية . وإذا تعمقت قليلا في الموضوع تجد أن الفنون تلازم العادات والأزياء والتقاليد الدينية والاجتماعية ، بل تلازم كل مظهر من مظاهر حياتنا الاجتماعية .

خليل بك : أنا شرقي وسأبقى شرقياً إلى آخر حياتي وقهراً عن بعض مظاهري الأوربية ، فأنا أرجو أن تبقى الآداب العربية طاهرة ونقية من جميع التأثيرات الأجنبية .

يوسف مسرة : إذا أنت ترجو موت اللغة والآداب العربية ؟

خليل بك : وكيف ذلك ؟

يوسف مسرة : إن الأمم المسنة التي لا تكتسب مما تثمره الأمم الحديثة تموت أدبياً وتنقرض معنوياً .

خليل بك : إن كلامك هذا يحتاج إلى برهان .

يوسف مسرة : لدى ألف برهان وبرهان .

(في هذه الدقيقة يدخل بولس الصليبان وسليم معوض فيقف

الحاضرون لهما احتراماً) .

يوسف مسرة : أهلا وسهلا بالإخوان (مخاطباً الصليبان) أهلا

وسهلا ببيل سوريا .

(الأنسية هيلانة تنظر إلى الصليبان وقد توردت وجتها قليلا

وظهرت على محياها أمارات السرور) .
سليم معوض : بالله عليك يا يوسف أن لا تقول كلمة حسنة لبولس .
يوسف مسرة : ولماذا ؟

سليم معوض (بين الجد والمزاح) : لأنه لا يستحق التكريم ولا
المدح ولا الإطراء . لأنه ذو أطوار وأخلاق غريبة . لأنه مجنون .
بولس الصلبان (مخاطباً معوض) : هل أحضرتك برفقتي إلى هذا
المنزل لتبين عيوني وتشرح أخلاقي ؟

الآنسة هيلانة : ماذا جرى يا ترى ؟ هل كشفت يا سليم أفندي
عيوباً جديدة في أخلاق بولس ؟

سليم معوض : إن عيوبه القديمة ستبقى جديدة حتى يموت ويدفن
وتتحول عظامه إلى تراب .

يوسف مسرة : أخبرنا . ماذا جرى ؟ أخبرونا بالحكاية من أولها إلى
آخرها .

سليم معوض (مخاطباً الصلبان) : هل تسمح لي أن أتكلم عن
جرائمك يا بولس ، أم تريد أن تعترف أنت بها ؟ .

بولس الصلبان : أريد أن تبقى صامتاً كالمقبرة هاجعاً كقلب
العجوز .

سليم معوض : إذا فسوف أتكلم .
الصلبان : يظهر لي أنك تريد أن تنغص عيشي في هذه السهرة .
سليم معوض : لا بل أريد أن أعرض قصتك أمام هؤلاء الأصحاب
لينظروا في أمرك .

الآنسة هيلانة (مخاطبة معوض) : تكلم وأسمعنا ما جرى !
(للصلبان) قد تكون الجريمة التي يريد سليم أن يظهرها إحدى
فضائلك .

الصلبان : لم أقترف جريمة كما أنني لم أفعل فضيلة . أما المسألة التي
يشوق صاحبنا إلى إظهارها فهي لا تستحق الذكر ، وفوق كل ذلك فأنا
لا أريدكم أن تصرفوا السهرة بحديثي .
الآنسة هيلانة : حسناً إذاً فلنسمع الخبر !

سليم معوض (يشعل لفاقة ويجلس بقرب يوسف مسرة) : قد سمعتم
طبعاً يا سادتي بزواج ابن جلال باشا بوقد عرفتم أن والد العريس قد أقام ليلة
أمس حفلة طرب دعا إليها وجهاء المدينة وكبارها . (مشيراً إلى بولس)
وقد دعا هذا الشرير ودعيت أنا أيضاً ، والسبب في ذلك أن الناس
يحبسونني ظلاً لبولس أسير حيث يسير وأقوم حيث يقوم ، ولأنه أدامه
الله وأبقاه ، لا يحب الإنشاد إلا على نقرات عودي . بلغنا منزل جلال باشا
متأخرين ، وبولسنا كالمملوك لا يجيء إلا متأخراً فوجدنا هناك الوالي
والمطران ، بل وجدنا هناك الحسنة الفاضلة والأديب والشاعر والمثري
والزعيم . جلسنا بين مجامر البخور وكؤوس الخمر والقوم ينظرون إلى
بولس كأنه ملاك هبط من السماء ، أما السيدات فأخذن يقدمن إليه
كؤوس الخمر وصحف النقل وطاقات الأزهار مثلما كانت تفعل نساء
أثينا عند رجوع أحد الأبطال من ساحات الحرب . خلاصة الكلام أن
بولسنا كان في بدء السهرة موضوعاً للتكريم والاحتفاء . أخذت عودي
وضربت أولاً وثانياً وثالثاً ففتح بولس شفثيه المقدستين وأنشد بيتاً .. بيتاً
(العواصف)

واحداً من قصيدة ابن الفارض :

غيرى على السلوان قادر وسواى فى العشاق غادر
فأصغى القوم وتناولت أعناقهم كأن الموصلى قد جاء من وراء
حجب الأبدية ليهمس فى آذانهم أنغاماً سحرية علوية . وبعد ذلك سكت
بولس فظن الحاضرون أنه سيعود إلى الإنشاد بعد أن يشرب كأساً أخرى
من العرق ، ولكن بولس ظل ساكناً .

بولس الصليبان (بلهجة جدية) : أرجوك أن تقف عند هذا الحد فأنا
لا أقدر أن أسمع هذا الحديث البليد ، وأنا لا أشك بأن أصحابنا لا يجدون
لذة بهذه الثرثرة الخالية من المعنى .

يوسف مسرة : بحقك دعنا أن نسمع البقية .

بولس الصليبان (ينهض من مكانه قائماً) : الظاهر أنكم تفضلون
هذا الحديث البارد على وجودى بينكم — أودعكم ! .
الآنسة هيلانة (تنظر إلى بولس نظرة معنوية) : اجلس يا بولس
ومهما كان الخبر فنحن معك .

(يجلس بولس وعلى وجهه دلائل الصبر والتجلد) .

سليم معوض (متابعاً حديثه) : قلت إن بولس المعطر المعظم قد
أنشد بيتاً — بيتاً واحداً من قصيدة الفارض وسكت . أعنى أنه أذاق
أولئك الجلياع المساكين لقمة واحدة من طعام الآلهة ثم رفس المائدة وكسر
آنيها وكؤوسها ، ثم جلس ساكناً جلوس أبى الهول على رمال النيل .
وقامت السيدات الواحدة بعد الأخرى يستعطفنه بأرق الكلام
لينشد أغنية أخرى فكان يعتذر لهن بقوله : (أنا مرشح .. أشعر بألم فى

حنجرتي) . ثم قام الوجهاء والأغنياء يرجونه ويتذللون أمامه فلم يمن ولم يلن بل بقى جامداً قاسياً متمنعاً كأن الله قد أبدل قلبه بحجر من الصوان ، وحول الأنعام في نفسه إلى الغنج والدلال . وبعد نصف الليل وقد بلغ القنوط من الحاضرين حد الأم ناداه جلال باشا إلى غرفة محاذية ووضع في جيبه قبضة من الدنانير قائلاً : « أنت تستطيع يا بولس أفندي أن تختم حفلتنا بالسرور أو بالأكدار ، لذلك أرجوك أن تقبل منى هذه الهدية الصغيرة لا كمكافأة بل كمظهر لشعوري نحوك فلا تحيب آمالي وآمال الحاضرين بك » .

عند ذلك تعالت قامة بولس وظهرت لوائح الكبرياء على وجهه ورمى بالدنانير إلى مقعد بجانبه قائلاً بلهجة الملوك الفاتحين : « أنت تهينني يا جلال باشا بل أنت تحتقرفني ، فأنا لم أجيء إلى منزلك لكي أنشد وأغنى وأبيع أنفاسي بالمال ، بل جئت كأحد المهثين » .

بعد هذا فقد جلال باشا صبره وتجلده وتلفظ ببعض كلمات خشنة جعلت بولس الحساس أن يخرج من المنزل لاعناً مجدفاً . أما أنا — أنا المسكين فقد تناولت عودي وتبعت بولس تاركا ورأى الوجوه الجميلة والقامات النحيلة والخمور الطيبة والمآكل الشهية . نعم قد ضحيت كل ذلك لكي لا أفقد صداقة هذا المتصلب المتعنت . قد ضحيت كل ذلك على مذبح هذا البعليم وهو للآن لم يشكرني ولم يمدح بسالتي ولم يعترف بمودتي وولائي .

يوسف مسرة (ضاحكا) : هذه بالحقيقة حكاية لذيذة حرة أن تكتب بالإبر على آماق البصر .

سليم معوض : لم أصل للآن إلى نهاية الحكاية.. أما اللذة ففي النهاية تلك النهاية الشيطانية التي لا يحلم بمثلها أهريمان الفرس ولا سيفا الهنود . الصلبان (مخاطباً الآنسة هيلانة) : بقيت هنا إكراماً لك ، والآن أرجوك أن تطلبي من هذا الضفدع أن يقف عند هذا الحد . هيلانة : دعه يتكلم يا بولس أو مهما كانت نهاية الخبر فنحن معك قلباً وقالباً .

سليم معوض (يشعل لفافة ثانية ويتابع الحديث) : قلت إننا خرجنا من منزل جلال باشا وبولس يجدف على اسم الأغنياء والوجهاء ، وأنا أجدف على اسمه في سرى . وبعد ذلك هل تظنون أنه ذهب كل منا إلى منزله ؟ هل تظنون أن ليلة أمس قد انتهت على هذه الصورة ؟ اسمعوا وتعجبوا !! تعلمون أن بيت حبيب سعادة محاذ لمنزل جلال باشا ولا يفصلهما غير حديقة صغيرة . وأنتم تعلمون أن حبيب سعادة من عشاق المدام والأنغام والأحلام ، وممن يعبدون هذا البعليم (مشيراً إلى بولس) . فلما خرجنا من منزل جلال باشا وقف بولس دقيقة في منتصف الشارع فاركا وجهته كأنه قائد عظيم يفكر بفتح مملكة عاصية ، ثم مشى فجأة نحو منزل حبيب سعادة وقرع الجرس بشدة فظهر حبيب بملابس النوم وهو يفرك عينيه ويتمتم ويتشاءب . ولكنه عندما رأى وجه بولس ورآنى حاملا العود تحت إبطى تغيرت سحنته ولمعت عيناه كأن السماء قد انفتحت أمامه وصرخ مسروراً مؤهلاً قائلاً : « ما أتى بكم في هذه الساعة المقدسة ؟ » فأجاب بولس قد جئنا لنحتفل بعرس ابن جلال باشا في دارك » . فقال حبيب « هل ضاقت عليكم دار جلال باشا فجئتم

إلى هذا المنزل الحقيقير ؟؟ » فأجاب بولس : « ليس لجدران بيت الباشا آذان تسمع رنات العود والأنشيد ، من أجل ذلك جئنا إليك فهات قنينة العرق وصحفة المازة ولا تطل الكلام » . الخلاصة جلسنا حول مائدة الشراب ولم يتناول بولس كأساً أو كأسين من العرق حتى قام وفتح النوافذ التي تطل على حديقة الباشا ، ثم ناولني العود وقال أمراً « هذه عصاك يا موسى فحوها إلى افعى ومرها أن تبتلع جميع أفاعى مصر . اضرب النهوند واضرب طويلا واضرب جميلا . فتناولت العود وليس على العبد إلا الطاعة ، وضربت النهوند فحول بولس وجهه نحو منزل جلال باشا وأخذ ينشد بصوت عال .

(هنا يسكت سليم دقيقة وتزول سيمياء المزاح عن وجهه ويقول بلهجة هادئة جدية) .

أنا أعرف بولس منذ خمس عشرة سنة . أعرفه منذ كنا صبيين في المدرسة ولقد سمعته منشداً في حالتى الفرح والشفاء . سمعته ينوح كالشكلى ويترنم كالعاشق ويهلل كالمنتصر . سمعته يهمس فى سكينة الليل وقد نامت هذه المدينة وسكانها وسمعته بين أودية لبنان وأجراس الكنائس البعيدة تملأ الفضاء سحراً وهيبة . نعم لقد سمعته ألف مرة ومرة ، وكنت أتوهم أننى أعرف حركات روحه وسكناتها . ولكننى فى ليلة أمس لما حول وجهه نحو منزل جلال باشا وأغمض عينيه وأنشد :

كل يوم أشكو من غرام قلبى وكلما أشكو يزيد الغرام
عندما أنشد هذا الدور متلاعباً بمقاطيعه مثلما يتلاعب الهواء بأوراق
الخريف ، قلت فى نفسى لا — ما عرفت فى الماضى من روح بولس إلا

القشور ، أما الآن فقد بلغت اللباب . لم أسمع في الماضي غير لسان بولس منشداً ، أما الآن فأني أسمع قلبه وروحه . وظل بولس يلاحق الدور بالدور ويتدرج من نشيد إلى نشيد ، حتى خيل لي أن في الفضاء طغمة من أرواح العشاق تحوم مرفرفة هامسة منادية مرددة تذكارات الماضي البعيد ، ناشرة ما طوته الليالي من أمانى البشر وأحلامهم . نعم يا سادتي (مشيراً إلى بولس) إن هذا الرجل قد صعد ليلة أمس على سلم الفن حتى بلغ الكواكب ، ومن العجائب أنه لم يهبط على الأرض حتى الفجر . لم يسكت حتى وضع أعداءه تحت موطىء قدميه كما جاء في المزامير ! أما ضيوف جلال باشا فلم يسمعوا صوته خارجاً من منزل حبيب سعادة حتى تراحموا في النوفذ وجلسوا نساء ورجالا يتأهون بعد كل مقطع وكل نبرة تخرج من فمه . وقد خرج بعضهم إلى الحديقة ووقفوا تحت الأشجار مغبوطين ، متعديين مصغين مختارين في أمر هذا البعليم الذي ينكهم ويهينهم ، وفي الوقت نفسه يملأ قلوبهم بخمرة علوية . وقد كان يناديه البعض مستعظفاً مترجياً والبعض متوعداً مجدفاً ، وقد علمت من أحد المدعويين أن جلال باشا كان يزأر كالأسد متنقلاً من غرفة إلى غرفة لاعناً الصلبان ، غاضباً على ضيوفه خصوصاً على أولئك الذين خرجوا إلى الحديقة حاملين كؤوس العرق وصحف المازة بأيديهم . هذا ما جرى ليلة أمس فما قولكم في هذا النابغة المجنون ؟ ما رأيكم بأطوار هذا الرجل وأخلاقه الغريبة ؟

خليل بك : هذه حادثة عجيبة ! أما رأيي فيها فهو هذا — أنا من المعجبين بمواهب بولس أفندي ، ومع كل احترامي له أقول إنه أخطأ ليلة

أمس فقد كان بإمكانه أن ينشد في بيت جلال باشا كما أنشد في بيت حبيب سعادة ، ويقابل استعطاف القوم بشيء من فنه (مخاطباً يوسف مسرة) ما رأيك يا يوسف أفندى ؟

يوسف مسرة : أنا لا ألوم الصليبان كما أنتى لا أحاول فهم أسراره وخفائيه لعلمى أن المسألة شخصية تتعلق به دون سواه ، ولعلمى أن أخلاق الفنيين ، خصوصاً الموسيقيين منهم تختلف عن أخلاق الناس كافة . وليس من الصواب أو العدالة أن نقيس أعمالهم ومآثرهم على المقاييس التى نستخدمها لإدراك أعمال غيرهم . إن الفنى وأعنى بالفنى ذلك المبدع الذى يخلق لأفكاره وعواطفه صوراً جديدة — هو رجل غريب بين أهله وخلاته ، وغريب فى وطنه بل هو غريب عن هذا العالم . الفنى يميل شرقاً عندما يميل الناس غرباً ، ويتأثر لعوامل باطنية لا يستطيع هو نفسه أن ييسطها . فهو تعس بين الفرحين فرح بين التعمساء ، ضعيف بين القادرين قادر بين الضعفاء . الفنى فوق الشريعة رضى الناس أم غضبوا .

خليل بك : إن كلامك هذا يا يوسف أفندى لا يختلف بمعانيه ومفاده عما جاء فى مقالاتك عن الفنون الجميلة . واسمح لى أن أقول ثانية إن الروح الغربية ، الروح الإفريقية التى تركز بها ستكون سبباً لزوالنا كشعب واضمحلالنا كأمة .

يوسف مسرة : هل تحسب أن ما فعله بولس أفندى ليلة أمس مظهرأ للروح الإفريقية التى تنكرها وتكرهها .

خليل بك : إنى أستغرب ما فعله بولس أفندى ، أقول ذلك مع

الاحترام لشخصه .

يوسف مسرة : أو ليس للصلبان تمام الحرية أن يفعل بصوته وفنه ما

يشاء ومتى يشاء ؟

خليل بك : نعم له تمام الحرية أن يفعل ما يشاء ، ولكننى أرى أن حياتنا الاجتماعية لا تتفق مع هذا النوع من الحرية . إن ميولنا وعاداتنا وتقاليدينا لا تسمح للفرد الواحد أن يفعل ما فعله بولس أفندى ليلة أمس بدون أن يضع نفسه في موقف حرج .

الآنسة هيلانة : هذه مناظرة لذيدة ومفيدة . ولكن بما أن السبب في

هذه المناظرة موجود بيننا فهو بالطبع يستطيع أن يدافع عن نفسه بنفسه .

بولس الصليبان (بعد سكوت طويل) : كنت أتمنى لو لم يفتح سليم

هذا الحديث . بل كنت أود أن يزول ما جرى ليلة أمس مع ليلة أمس .

ولكن بما أنني في مركز حرج كما يقول حضرة البك ، فأنا لا أرى بدأ من

إظهار أفكارى في هذا الموضوع . أنتم تعلمون وأنا أعلم أيضاً أن أكثر من

يعرفنى ينتقدنى ، هذا يقول إننى مغنج وذلك أننى أعوج . وهناك فئة

تقول إننى لقيم وليس للقيم كرامة . وما هو السبب يا ترى في هذه

لانتقادات الجارحة ؟ إن السبب في أخلاقى ، نعم في أخلاقى التى لا أقدر

أن أغيرها ولو قدرت لما أردت . ولماذا يا ترى يهتم الناس بى وبأخلاقى ؟ أليس

بإمكانهم أن يتناسوا كيانى ؟ في هذه المدينة كثير من المغنين والمنشدين

والموسيقيين ، وكثير من الشعراء والمقرظين ، وكثير من المبحرئين

والشحاذين الذين يبيعون أصواتهم وأفكارهم وعواطفهم ، بل ويبيعون

نفوسهم بدينار أو بعلفة أو بقنينة من الخمر . وقد عرف أغنياؤنا

ووجهًاؤنا هذا السر ، لذلك تراهم يتعاون أبناء الفن والأدب بأجنس
الاشمان ويعرضونهم في منازلهم وقصورهم كما يعرضون خيولهم ومركباتهم
في الساحات والطرق . نعم أيها السادة إن المغنين والشعراء في الشرق هم
حملة المباخر ، بل هم العبيد ، وقد فرض عليهم أن ينشدوا في الأعراس
ويتنموا في الحفلات ويندبوا في المآتم ويرثوا في المقابر . هم الآلات التي
تدار في أيام الحزن وليالي الأفراح ، فإذا لم يكن من داع للحزن أو الفرح
طرحوا جانباً كأنهم سلع لا قيمة لها . وأنا لا ألوم الوجهاء والأغنياء بل
ألوم المغنين والشعراء والأدباء الذين لا يحترمون نفوسهم ولا يضمنون بماء
وجوههم . ألومهم لأنهم لا يترفعون عن الصغائر والتوافه . ألومهم لأنهم
لا يفضلون الموت على الخضوع والتذلل .

خليل بك (متبيجا) : إن القوم كانوا يستعطفونك ليلة أمس
ويحاولون بكل وسيلة لديهم أن يسترضوك لتكرم عليهم بأغنية أو
نشيد . فهل تحسب إنشادك في بيت جلال باشا نوعاً من الخضوع
والتذلل ؟ .

بولس الصلبان : لو استطعت الإنشاد في منزل جلال باشا لفعلت .
ولكنني نظرت حولي فلم أجد بين الحاضرين غير الموسرين الذين لا
يسمعون من الأصوات إلا رنات الدنانير ، والوجهاء الذين لا يفهمون
من الحياة إلا ما يرفعهم ويخفض سواهم . نظرت حولي فلم أجد من يميز
النهاوند عن الرصد أو العشاق عن الأصفهان ، لذلك لم أستطع أن أفتح
صدرى أمام العميان ، أو أعرض أسرار قلبي أمام الطرشان . إنما
الموسيقى لغة الأرواح ، هي سيال خفى يتموج بين روح المنشد وأرواح

السامعين ، فإذا لم يكن هناك من أرواح تسمع وتفهم ما تسمع ، فالمنشد يفقد ذلك الميل إلى البيان ويفقد ذلك الشوق إلى اظهار ما في أعماقه من الحركات والسكنات. والموسيقى مثل قيثارة ذات أوتار مشدودة حساسة ، فإذا تراخت تلك الأوتار فقدت خاصتها وأصبحت كخيوط من الكتان . (يقف ويسير بضع خطوات ثم يقول ببطء) لقد تراخت أوتار روحى فى منزل جلال باشا عندما تفرست فى الحاضرين نساء ورجالا ولم أر بينهم غير المتكلف والمتصنعة والمتقلد والبليدة والعقيم والمتعجرفة . أما استعطافهم إياى فلم يكن ناتجاً إلا عن تمنعى وسكوتى . ولو كنت كالكثيرين من ضفادع المنشدين لما اهتم أحد بى .

خليل بك (يقاطعه مداعباً) : وبعد ذلك ذهبت إلى منزل حبيب سعادة . وللنكاية — وللنكاية فقط — جلست منشداً حتى الصباح !

بولس الصلبان : جلست منشداً حتى الصباح لأنى أردت أن أفرغ مكنونات قلبى . لأننى أردت أن ألقى حملاً ثقيلاً عن عاتقى . لأننى أردت أن أعاتب الليل والحياة والدهر . لأننى شعرت بحاجة ماسة إلى شد تلك الأوتار التى تراخت فى منزل الباشا . أما إذا كنت تظن يا خليل بك أننى أردت النكاية فلك الحق أن تفتكر بما تريد . إن الفن طائر حر يسبح محلقاً عندما يشاء ويهبط إلى الأرض عندما يشاء ، وليس من قوة فى هذا العالم تستطيع تقييده أو تغييره . الفن روح سام لا يباع ولا يشتري ، وعلى الشرقيين أن يعرفوا هذه الحقيقة المطلقة . أما الفنيون بيننا — وهم أندر من الكبريت الأحمر . فعليهم أن يكرموا نفوسهم لأنها الإناء الذى يملأه

الله خمره علوية .

يوسف مسرة : إلى متفق معك يا بولس . ولقد أبنت أفكارى فى هذا الموضوع بصورة لا أستطيع أنا إظهارها . أنت ابن الفن أما أنا فباحث بالفنون ، والفرق بيننا هو كالفرق الكائن بين العنب الحامض والخمرة المعتقة .

سليم معوض : الصلبان يتكلم مثلما ينشد ، وليس على سامعه إلا الاقتناع والإذعان .

خليل بك : لم أقتنع بعد ولن أقتنع . وما فلسفتكم هذه إلا إحدى تلك العلل المتسربة إلينا من بلاد الإفرنج .

يوسف مسرة : لو سمعت الصلبان منشداً يا حضرة البك لاقتنعت ونسيت الفلسفة . (فى هذه الدقيقة تدخل الخادمة وتخطب الأنسة هيلانة قائلة : يا معلمتى قد جاءت الكنافة من الفرن فوضعتها على المائدة) .

يوسف مسرة (ينتصب مخاطباً الجميع) : تفضلوا أيها الإخوان فقد هيأنا لكم أكلة لذيذة — لذيذة جداً وتكاد أن تكون صلبانية بنكهتها وحلاوتها !

(يقف الجميع ثم يخرج يوسف مسرة و خليل بك وسليم معوض ، أما الصلبان والآنسة هيلانة فيظلان واقفين فى وسط القاعة وكل يحدق بوجه الآخر وفى عينيهما أشعة لاتوصف) .

هيلانة (هامسة) : هل علمت أننى كنت مصغية إليك ليلة أمس ؟
الصلبان (مستغرباً) : ماذا تعنين يا هيلانة قلبى ؟

- هيلانة (بنجل ووجل) : كنت أمس في بيت شقيقتي مريم .
ذهبت لأنام عندها لأن زوجها متغيب وهي تخاف لوحدها .
الصلبان : أوبيت صهرك على طريق الحرج ؟
هيلانة : ولا يفصله عن بيت حبيب سعادة غير زقاق ضيق .
الصلبان : وهل سمعتيني منشداً ؟
هيلانة : سمعت نداء روحك من نصف الليل حتى الفجر . سمعتك
حتى سمعت الله متكلماً .
(يسمع صوت يوسف مسرة آتياً من الغرفة المحاذية قائلاً) :
« تفضل يا بولس فقد بردت الكنافة » .
(يخرج بولس وهيلانة الستار)

الشاعر البعلبكي

١

في مدينة بعلبك سنة ١١٢ قبل الميلاد .
جلس الأمير على عرشه الذهبي ، المحاط بالمسارج المشتعلة والمباخر
المتقدة ، فجلس القواد والكهان عن يمينه وشماله ، ووقف الجنود والعبيد
أمامه ، وقوف الأنصاب أمام وجه الشمس .
بعد هنيئة وقد انتهى المرتلون من إنشادهم ، وتوارت أنفاسهم بين
طيات أثواب الليل ، وقف كبير الوزراء أمام الأمير وقال بصوت تهدجه
ضآلة الشيخوخة :

أيها الأمير العظيم ، قد جاء المدينة بالأمس حكيم من حكماء الهند ذو
أطوار غريبة ومذاهب عديدة لم نسمع قط بمثلها ، فهو يدعو الناس إلى
الاعتقاد بتقمص الأرواح من جسد إلى جسد ، وانتقال النفوس من جيل
إلى جيل حتى تبلغ الكمال ، وتصير إلى مصف الآلهة . وقد جاء الليلة
طالباً الدخول عليك لייسط تعاليمه أمامك .

فهز الأمير رأسه وقال مبتسماً :

« من بلاد الهند تأتي الغرائب والعجائب ، فأدخلوه لنسمع

حجته » .

لم تمر دقيقة حتى دخل كهل أسمر اللون ، مهيب المنظر ، ذو عينين كبيرتين وملاح منفرجة ، تتكلم بلا نطق عن أسرار عميقة وأميال غريبة ، وبعد أن انحنى مستأذناً رفع رأسه وتلمعت عيناه ، وطفق يتكلم عن بدعته مظهر أكيف تنتقل الأرواح من هيكل إلى هيكل مرتقية بعوامل الوسط الذى تختاره ، متدرجة بتأثيرات الأمور التى تختبرها، متمائلة مع الأجماد التى ترفعها وتقويها ، نامية مع الحب الذى يسعدها ويشقيها .. ثم تطرق إلى كيفية انتقال النفوس من مكان إلى مكان باحثة عما تحتاج إليه من الكماليات ، مكفرة فى حاضرها عن ذنوب اقترفتها فى ماضيها ، مستغلة فى بلد مازرعتة فى بلد آخر .

ولما طال الكلام وقد بدت على ملاح الأمير سيماء الملل والضجر ، اقترب كبير الوزراء من الحكيم وهمس فى أذنه قائلاً : « كفى الآن فدع البحث إلى فرصة ثانية » .

فتراجع الحكيم إلى الوراى وجلس بين الكهان مطبقاً أجبانه ، كأن عينيه قد تعبتا من التحديق فى خفايا الوجود وأساراه .

وبعد سكينه شبيهة بغيوبة الأنبياء ، تلفت الأمير إلى اليمين وإلى اليسار ثم سأل قائلاً : « أين شاعرنا فقد مر زمن ولم نره .. ماذا حل به وقد كان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟ »

فقال أحد الكهان « قد رأيته منذ أسبوع جالساً فى رواق هيكل عشتروت ، وهو ينظر بعينين جامدتين كهيبتين نحو الشفق البعيد كأنه أضاع بين الغيوم قصيدة من قصائده » .

وقال أحد القواد « قد رأيته بالأمنس واقفاً بين أشجار السرو

والصفصاف فحييته ولم يرد التحية ، بل ظل غارقاً في بحر أفكاره وأحلامه .

وقال رئيس الخصيان « قد رأيتك اليوم في حديقة القصر فدنوت منه فوجدته أصفر اللون شاحب الوجه ، تراود الدموع أجفانه وتلاعب الغصات بأنفاسه .

فقال الأمير بصوت تلاحقه اللفهة « اذهبوا وابحثوا عنه وعودوا به مسرعين ، لقد شغل بالنا أمره .

خرج العقيد والجنود يبحثون عن الشاعر ، وظل الأمير وأعدائه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شعرت بوجود شبح غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة .

وبعد هنيهة عاد رئيس الخصيان وارتمى على قدمي الأمير كطائر رماه الصياد بسهم . فصرخ به الأمير قائلاً « ما الخبر .. ماذا جرى ؟ » .
فرفع الزنجي رأسه وقال مرتعشاً « قد وجدنا الشاعر ميتاً في حديقة القصر » .

فانتصب الأمير وقد علت سحته سيماء الحزن والكمد ، ثم خرج إلى الحديقة يتقدمه حاملو المسارج ويتبعه القواد والكهان . ولما بلغوا أطراف الحديقة حيث أشجار اللوز والمان جلت لهم أشعة السرج الصفراء جثة هامدة مرتمية على الأعشاب كغصن ورد ذابل .

فقال أحد الأعوان « انظروا كيف عانق قيثارته كأنها صبية حسناء أحبها وأحبته ، فتعاهدا على أن يموتا معاً » .

وقال أحد القواد « لم يزل يحدق في أعماق الفضاء كعادته ، كأنه

يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف .
وقال رئيس الكهان مخاطباً الأمير « غداً نقره في ظلال هيكل
عشروت المقدسة ، فيسير سكان المدينة وراء نعشه ، وينشد الفتيان
قصائده ، وتثر العذارى الأزهار على ضريحه . لقد كان شاعراً عظيماً
فليكن احتفالنا بدفنه عظيماً » .

فهز الأمير رأسه دون أن يحول عينيه عن وجه الشاعر المتشح بنقاب
الموت ، ثم قال ببطء « لا . لا . لقد أهملناه إذ كان حياً يملأ جوانب
البلاد من أشباح نفسه ، ويعطر الفضاء بأنفاسه ، فإذا ما أكرمناه ميتاً
تسخر بنا الآلهة وتضحك منا عرائس المروج والأودية . ادفنوه ههنا
حيث فاضت روحه ، وأبقوا قيثارته بين ذراعيه . وإن كان بينكم من يريد
أن يكرمه فليذهب إلى بيته ويخبر أبناءه بأن الأمير قد أهمل شاعره فمات
كثيباً وحيداً منفرداً » .

ثم التفت حوله وزاد قائلاً « أين الفيلسوف الهندي ؟ » .

فتقدم الفيلسوف وقال « ها أنذا أيها الأمير العظيم » .

فقال الأمير « قل — قل أيها الحكيم — هل ترجعني الآلهة أميراً إلى
هذا العالم وتعيده شاعراً . هل تلبس روحي جسد ابن ملك عظيم ،
وتتجسم روحه في جسد شاعر كبير . هل توقفه النواميس ثانية أمام وجه
الأبدية لينظم الحياة شعراً ، وتعيدني لأنعم عليه وأفرح قلبه بالهبات
والعطايا؟ » .

فأجاب الفيلسوف قائلاً « كل ما تشاقه الأرواح تبلغه الأرواح ،
فالناموس الذى يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميراً عظيماً

ويعيده شاعراً كبيراً » .

فانفرجت ملامح الأمير وانتعشت نفسه ، ثم مشى نحو قصره مفكراً
في أقوال الحكيم الهندي محدثاً ذاته بقوله « كل ما تشاقه الأرواح تبلغه
الأرواح » .

٢

« في مصر القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد » .

طلع القمر وألقى وشاحه الفضى على المدينة ، وأمير البلاد جالس في
شرفة قصره ينظر إلى الفضاء الصافي ، مفكراً بماقى الأجيال التي مرت
متتابعة على ضفاف النيل ، مستوضحاً أعمال الملوك والفاتحين الذين
وقفوا أمام هيبة أبى الهول ، مستعرضاً مواكب الشعوب والأمم التي
سيرها الدهر من جوانب الأهرام إلى قصر عابدين .

ولما اتسعت دائرة أفكاره ، وانبسبت مسارح أحلامه ، التفت نحو
نديمه الجالس بقربه وقال « فى نفسنا الليلة ميل إلى الشعر فانشدنا شيئاً
منه » .

فحنى النديم رأسه وأخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلى ، فقاطعه الأمير
قائلاً « أنشدنا شعراً أحدث عهداً » .

فانحنى النديم ثانية وابتدأ يردد أبياتاً لأحد الشعراء المخضرمين .

فقاطعه الأمير أيضاً وقال « أحدث عهداً — أحدث عهداً » .

فانحنى النديم للمرة الثالثة وأخذ يترنم بمقاطع موشح أندلسى .

(العواصف)

فقال الأمير « أنشدنا قصيدة لشاعر معاصر » .

فرفع النديم يده إلى جيبته كأنه يريد أن يستحضر إلى حافظته كل ما نظمه شعراء العصر . ثم برقت عيناه وتهلل وجهه ، وطفق يرتل أبياتاً خيالية ذات رنة سحرية ومعان رقيقة مبتكرة . وكنيات لطيفة نادرة تجاور النفس فتملؤها شعاعاً وتحيط بالقلب فتذيه انعطافاً .

فحدق الأمير بنديمه ، وقد استهوته نغمة الأبيات ومعانيها ، وشعر بوجود أيد خفية تجذبه من ذلك المكان إلى مكان قصي . ثم سأل قائلاً « لمن هذه الأبيات ؟ » .

فأجاب النديم « للشاعر البعلبكي » .

— الشاعر البعلبكي !

الشاعر البعلبكي .. كلمتان غريبتان تموجتا في مسامع الأمير وولدتا في داخل روحة النبيلة أشباح أميال ملتبسة بوضوحها قوية بدقتها . الشاعر البعلبكي اسم قديم جديد . أعاد إلى نفس الأمير رسوم أيام منسية ، وأيقظ في أعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة ، ورسم أمام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورة فتى ميت يعانق قيثارة ، وقد وقف حوله القواد والكهان والوزراء .

وامحت هذه الرؤيا أمام عيني الأمير مثلما تتوارى الأحلام بمجىء الصباح ، فوقف ومشى جامعاً ذراعيه على صدره ، مردداً آية النبي العربي « وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » .

ثم التفت نحو نديمه قائلاً « يسرنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا وسوف نقربه ونكرمه » . وبعد دقيقة زاد بصوت منخفض « إننا

الشاعر طائر غريب المزايا ، يفلت من مسارحه العلوية يجيء هذا العالم
مغرّدًا ، فإن لم نكرمه يفتح جناحيه ويعد طائرًا إلى موطنه .
وانقضى الليل .. فخلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم ، ولبس
قميصه المنسوجة من أشعة الصباح . ونفس أمير البلاد تتمايل بين عجائب
الوجود وغرائبه وخفايا الحياة وأسرارها .

السم في الدسم

في صباح يوم من أيام الخريف الذهبية التي تظهر شمال لبنان بكل مظاهره العلوية ، اجتمع سكان قرية «تولا» ، حول الكنيسة القائمة في وسط منازلهم يتساءلون ، ويتبادلون الآراء في سفر فارس الرحال الفجائئ إلى مكان قصي لا يعلم به غير الله ، تاركا عروسته الصبية التي تزوج بها منذ ستة أشهر .

كان فارس الرحال شيخ القرية وزعيمها ، وقد ورث هذه المنزلة عن أبيه وجدته . ومع أنه لم يتجاوز السابعة والعشرين من عمره فقد كان في شخصيته ما يوعز الاحترام والوقار في قلوب مواطنيه . وعندما اقترن في أواسط الربيع الغابر بسوسان بركات قال الناس : ما أسعده فتى ! فهو قد حصل قبل أن يبلغ الثلاثين على كل ما يتمناه الإنسان من السعادة في الحياة الدنيا .

ولكن في ذلك الصباح عندما استيقظ سكان تولا ، قيل لهم إن الشيخ فارس قد جمع ما تيسر له من المال وركب فرسه وغادر القرية دون أن يودع نسيباً أو صديقاً . تعاضمت ظنونهم وأخذوا يتساءلون عن الأسباب الخفية التي جعلته يتركهم ويترك عروسته ومنزله وحقوله وكرومه .

إن الحياة في شمال لبنان أقرب إلى الاشتراكية منها إلى كل تعليم آخر ،
فالقوم هناك يتساهمون أفراس الوجود وشداثده ، مدفوعين بأميال فطرية
وضعية . فإذا ما جاءت الأيام بمحادث إلى قرية ينصرف سكانها بكليتهم
إلى استقصاء ذلك الحادث حتى تخبىء الأيام إليهم بأمر آخر .
تلك هي العوامل التي صرفت سكان تولا عن أعمالهم اليومية ،
فاجتمعوا حول كنيسة مارتولا يتحدثون ويتساءلون ويتبادلون الآراء
بسفر فارس الرحال .

وبينا هم على هذه الحالة وإذا بالخوزى إسطفان كاهن القرية يقترب
منهم منحني الرأس منقبض الملامح . فدنوا منه مستطلعين فظل ساكناً
يفرك يداً بييد ، وبعد هنيهة قال :

— لا تسألوني .. لا تسألوني . كل ما أعرفه يا أبنائي هو هذا : قرع
فارس باب منزلي قبل طلوع الفجر ، ولما فتحت له وجدته متمسكاً بمقود
فرسه وعلى وجهه أمارات الحزن الشديد . فسألته مستغرباً عما يريد
فقال « جئت لأودعك يا أبتى . فأنا مسافر إلى ما وراء البحار ولن أعود
إلى هذه البلاد وأنا حي . ثم وضع في يدي رسالة مختومة باسم صديقه
نجيب مالك وطلب إلى أن أسلمها إليه يداً بييد ، فعل هذا واعتلى فرسه
وراح مسرعاً قبل أن أستوضح أمره ، هذا كل ما أعرفه فلا تسألوني
الزيادة » فقال أحد الواقفين :

— لا شك أن في الرسالة ما ينبئنا عن سبب سفره ، لأن نجيب مالك
كان أعز صديق له في القرية .
وقال آخر :

— وهل رأيت عروسته يا أبتاه ؟

فأجاب الكاهن :

— قد زرتها بعد صلاة الصباح فوجدتها جالسة بقرب النافذة تنظر إلى البعيد بعينين زجاجيتين كأنها فقدت إدراكها . ولما سألتها هزت رأسها وقالت « لا أدري لا أدري » ثم طفقت تبكى وتتنحب كالأطفال . ولم ينته الكاهن من كلامه إلا وذعر القوم حوله لطلق بندقية جاء من الوجهة الشرقية من القرية . ثم تبعه صراخ امرأة جارح ارتعشت له دقائق الفضاء . فبهت القرويون دقيقة ثم تراكضوا نساء ورجالا وعلى وجه كل واحد منهم برقع من الخوف والتشاؤم . ولما بلغوا البستان الذى يحيط بمنزل فارس الرجال شاهدوا هنالك منظرأ أجمد الدم فى عروقهم والفكرة فى رؤوسهم — رأوا نجيب مالك منطرحاً على التراب والنجيع يتدفق من أمعائه . وعلى مقربة منه سوسان زوجة فارس الرجال تنبش شعرها وتمزق أثوابها وتصرخ متوجعة : قد قتل نفسه . قد قتل نفسه . قد أطلق البندقية فى صدره » .

فبهت القوم كأن أكف القضاء غير المنظورة قد قبضت على أرواحهم . ولما اقترب الكاهن من الصريع وجد فى يمينه الرسالة التى كان قد سلمه إياها فى ذلك الصباح وقد قبض عليها بشدة ، كأنه يريد أن يجعلها جزءاً من أصابعه ، فتناولها الكاهن ووضعها فى جيبه دون أن يراه أحد ، ثم تراجع إلى الوراء لاطماً وجهه .

وحمل القوم جثة المنتحر إلى بيت والدته المسكينة التى لم تر جثة وحيدها حتى فقدت عقلها .

واهتم بعض النساء بزوجة فارس الرحال فافتادوها إلى منزلها بين حية وميتة .

ولما بلغ الخورى إسطفان منزله أوصد الباب ووضع النظارات على عينيه منتشلا الرسالة التى وجدها فى يد نجيب مالك ، وبصوت مرتعش أخذ يقرأ :

أخى نجيب :

أنا تارك هذه القرية لأن وجودى فيها يجلب التعاسة لك ولزوجتى ولى أيضاً . أنا أعلم أنك شريف النفس تترفع عن خيانة صديقك وجارك . وأعلم أن زوجتى سوسان طاهرة الذيل ، ولكننى أعلم فى الوقت نفسه أن الحب الذى يضم قلبك وقلبها هو أمر فوق إرادتكما . فأنت لا تستطيع إزالته كما أنك لا تقدر أن توقف مجارى نهر قاديشا . لقد كنت صديقاً يا نجيب مذكنا صبيين نلعب فى الحقول وفى ساحة الكنيسة ، وأنت لم تنزل صديقى أمام الله ، وأرجوك أن تفكر بى فى المستقبل مثلما كنت تفكر بى فى الماضى ، وإذا التقيت بسوسان غداً أو بعده فقل لها إنى أحبها وأرحمها . وقل لها أيضاً إنى كنت أذوب شفقة عندما كنت أستيقظ فى سكينه الليل وأراها راكعة أمام صورة يسوع تبكى وتنتحب وتجلد صدرها . ليس أصعب من حياة المرأة التى تجد نفسها واقفة بين رجل يحبها ورجل تحبه . وسوسان المسكينه كانت فى حرب دائم . كانت تريد أن تقوم بواجباتها الزوجية ولكنها لم تكن قادرة على قتل عواطفها . أما أنا فمسافر إلى مكان بعيد ولن أعود إلى هذه الديار ، لأنى لا أريد أن أكون

حجر عثرة في سبيل سعادتكما . وفي الختام أرجوك يا أخى أن تبقى مخلصاً لسوسان ، وأن تحافظ عليها حتى النهاية لأنها قد ضحت كل شيء من أجلك . فهى تستحق كل ما يستطيع الرجل أن يقدم للمرأة . ابق يا نجيب كما عهدتك شريف القلب كبير النفس ، والله يحفظك لأخيك .

فارس الرحال

ولما انتهى الخورى إسطفان من قراءة الرسالة ، طواها وأعادها إلى جيبه وجلس بقرب النافذة ينظر إلى الوادى البعيد وعلى وجهه المتجدد أمارات التفكير العميق .

ولكن لم تمر دقيقة حتى انتصب فجأة على قدميه كأنه وجد بين ثنايا أفكاره سراً دقيقاً هائلاً محجوباً بالظواهر ملتقاً بالسطحيات . فهتف صارخاً : ما أكثر دهائك يا فارس الرحال : فقد عرفت كيف تقتل ابن مالك وتبقى بريئاً من دمه . قد بعثت إليه بالسم ممزوجاً بالعسل ، قد بعثت إليه السيف ملتقاً بالحرير . قد بعثت إليه الموت طى الرسالة . فعندما صوب بندقيته إلى صدره كانت يدك قابضة على يده وإرادتك محيطة بإرادته .. أواه ما أكثر دهائك يا فارس الرحال .

وعاد الخورى إسطفان فجلس على المقعد هازأ رأسه ممشطاً لحيته بأصابعه ، مبتسماً ابتسامات ذات معان أشد هولاً من المأساة ، وبعد هنيهة تناول كتاباً من خزانة قريبة وأخذ يتلو بعض موشحات القديس أفرام السريانى ، وهو يرفع عينيه بين الآونة والأخرى ليسمع ضراخ النساء آتياً من قلب القرية .

ماوراء الرداء

عندما انتصف الليل فتحت راحيل عينها وحدقت هنيهة بسقف الغرفة ، ثم أغمضتهما وتهدت تنهدة عميقة متقطعة ، وبصوت يكاد أن يكون لهائناً قالت :

« ها قد بلغ الصباح أطراف الوادى ، فلنذهب إلى لقائه » .

فاقترب إذ ذاك الكاهن من مضجعها وجس يدها فوجدتها باردة كالثلج ، ثم وضع أصابعه بلطف فوق قلبها فألفاه ساكناً كالدهور ، فأحنى رأسه وارتعشت شفتاه كأنه يريد أن يلفظ كلمة علوية ترددها أشباح الليل فى تلك الأودية القاصية الخالية . ثم صلب ذراعها فوق صدرها والتفت نحو الرجل الجالس فى قرنة مظلمة من تلك الغرفة ، وقال بصوت ملؤه الشفقة والانعطاف : « قد ذهبت زوجتك إلى لقاء ربها . فقم يا أحنى اركع بجانبى لنصلى » .

فرفع الرجل رأسه وقد تغيرت ملامحه وكبرت عيناه كأنه رأى فى فضاء الغرفة ظل إله غير معروف . ثم وقف بهدوء وتقدم من مضجع زوجته وركع بجانب الكاهن مصلياً منتحباً ، راسماً بين الآونة والأخرى إشارة الصليب على وجهه وضدرة .

وانتصب الكاهن واضعاً يده على كتف الرجل قائلاً :

(العواصف)

« قم يا أخى ! تعال إلى الغرفة الثانية . فأنت بحاجة إلى النوم والراحة » .

فلم يبد الرجل معارضة ، بل وقف وسار إلى الغرفة المخاذية ورمى بنفسه على سرير ضيق ممدداً جسده شأن من ينهكه الهم والسهر والانتظار .

ولم تمر بضعة دقائق حتى غلب النوم أجفانه فرقد كطفل بين ذراعى أمه .

أما الكاهن فظل منتصباً كالتمثال وسط تلك الغرفة بعينين غارقتين بالدموع نحو جثة الصبية الباردة ، و يلتفت كل دقيقة نحو زوجها النائم فى الغرفة المخاذية .

ومرت ساعة أطول من الدهر وأشد هولا من الموت ، والكاهن واقف بين رجل وامرأة راقدين .. رجل راقد رقود حقل يحلم بمجىء الربيع ، وامرأة راقدة مع الأزمنة الغابرة تحلم أحلام الأبدية .

حينئذ اقترب الكاهن من مضجع الصبية وجثا أمامها كما يجثو أمام المذبح ، ثم أخذ يدها الباردة ووضعها على شفثيه المرتجفتين ونظر إلى وجهها المتشعق بنقاب الموت ، وبصوت هادئ كالليل عميق كالبحر مرتعش كآمال البشر قال :

« ياراحيل ، ياراحيل ، يا أخت روحى ، اسمعنى ياراحيل فأنا أستطيع الآن الكلام . قد فتح الموت شفثى لأبوح لك بسر أعماق من الموت ، وأطلق الألم لسانى لأكشف لك أمراً أشد من الألم . اسمعى

صراخ روحى أيتها الروح المرفقة بين الأرض واللا نهاية . اسمعى الشاب الذى كان يراك راجعة من الحقل فيتحنى محتجباً بين الأشجار خائفاً من جمال وجهك . اسمعى الكاهن الذى يخدم الله فهو يناديك الآن بلا وجل لأنك بلغت مدينة الله .

هس هذه الألفاظ ثم انحنى فوقها وقبل جبهتها وقبل عينيها وقبل عنقها — قبلات طويلة حارة ، خرساء « علوية » تبين ما فى نفسه من أسرار الحب والألم .

ثم تراجع فجأة إلى الوراء وارتمى على الأرض مرتعشاً كأوراق الخريف ، كأن ملامسة وجه المرأة الثلجة قد أيقظت فى داخله عاطفة الندم . ثم انتصب جاثياً ساتراً وجهه بيديه قائلاً فى سره :

« اغفر ذنبى يا رب ! سامح ضعفى يا إلهى ! فأنا لم أتجلد حتى النهاية . فالسر الذى أخفته الحياة فى قلبى سبعة أعوام قد أباحه الموت بدقيقة واحدة . اغفر لى يا رب سامح ضعفى يا إلهى .. » .

وظل على هذه الحالة ينتحب ويتوجع ويميل برأسه ذات اليمين وذات اليسار ، ولا ينظر إلى جثة الصبية خائفاً على نفسه من خفايا نفسه حتى جاء الصباح وألقى وشاحه الوردى على تلك الرسوم الهيولية التى تمثل الحب والدين والحياة والموت .

البنفسجة الطموحة

كانت في حديقة منفردة بنفسجة جميلة الثنايا ، طيبة العرف تعيش مقتنعة بين أترابها وتتايل فرحة بين قامات الأعشاب .

ففى صباح ، وقد تكلفت بقطر الندى ، رفعت رأسها ونظرت حواليتها فرأت وردة تتناول نحو العلاء بقامة هيفاء ورأس يتسامى متشامخاً كأنه شعلة من النار فوق مسرجة من الزمرد .

فتفتحت البنفسجة نغرها الأزرق وقالت متنهدة « ما أقل حظى بين الرياحين ، وما أوضع مقامى بين الأزهار : فقد ابتدعتنى الطبيعة صغيرة ، حقيرة أعيش ملتصقة بأديم الأرض ولا أستطيع أن أرفع قامتى نحو ازرقاق السماء أو أحول وجهى نحو الشمس مثلما تفعل الورود » .

وسمعت الوردة ما قالته جارتها البنفسجة فاهتزت ضاحكة ثم قالت : « ما أغباك بين الأزهار ، فأنت فى نعمة تجهلين قيمتها . فقد وهبتك الطبيعة من الطيب والظرف والجمال ما لم تهبه لكثير من الرياحين . فخل عنك هذه الميول العوجاء والأمانى الشريرة وكونى قنوعة بما قسم لك ، واعلمى أن من خفض جناحه يرفع قدره ، وأن من طلب المزيد وقع فى النقصان » .

فأجابت البنفسجة قائلة : أنت تعزبنى أيتها الوردة لأنك حاصلة على

ما أتمناه ، وتغمرين حقارتي بالحكم ، لأنك عظيمة . وما أمر مواعظ
السعداء في قلوب التعساء ، وما أفسى القوى إذا وقف خطيباً بين
الضعفاء !) .

* * *

وسمعت الطبيعة مادار بين الوردة والبنفسجة فاهتزت مستغربة ، ثم
رفعت صوتها قائلة :

ماذا جرى لك يا ابنتي البنفسجة ؟ فقد عرفتك لطيفة بتواضعك ،
عذبة بصغرك ، شريفة بمسكنتك ، فهل استهوتك المطامع القبيحة ، أم
سلبت عقلك العظمة الفارغة ؟ » .

فأجابت البنفسجة بصوت ملؤه التوسل والاستعطاف :
« أيتها الأم العظيمة مجبروتها الهائلة بجنانها ، أضرع إليك بكل ما في
قلبي من التوسل ، وما في روحي من الرجاء أن تجيبي طلبى وتجعليني
وردة ، ولو يوماً واحداً » .

فقالت الطبيعة : « أنت لا تدرين ما تطلين ولا تعلمين ما وراء
العظمة الظاهرة من البلايا الخفية ، فإذا رفعت قامتك وأبدلت صورتك
وجعلتك وردة تندمين حين لا ينفع الندم » .

فقالت البنفسجة : « حوِّلى كيانى البنفسجى إلى وردة مديدة القامة
مرفوعة الرأس . ومهما يحل لى بعد ذلك يكن صنع رغائى
ومطامعى » .

فقالت الطبيعة : « لقد أجبت طلبك أيتها البنفسجة الجاهلة
المتمردة ، ولكن إذا داهمتك المصائب والمصاعب فلتكن شكواك من

نفسك » .

ومدت الطبيعة أصابعها الخفية السحرية ولمست عروق البنفسجة فتحولت بلحظة إلى وردة زاهية متعالية فوق الأزهار والرياحين .
ولما جاء عصر ذلك النهار تلبد الفضاء بغيوم سوداء مبطنة بالإعصار ،
ثم هاجت سواكن الوجود فأبرقت وأرعدت وأخذت تحارب تلك
الحدائق والبساتين بجيش عرمرم من الأمطار والأهواء . فكسرت
الأغصان ولوت الأنصاب واقتلعت الأزهار المتشامخة ، ولم تبق إلا على
الرياحين الصغيرة التى تلتصق بالأرض أو تختبئ بين الصخور .
أما تلك الحديقة المنفردة فقد قاست من هياج العواصف ما لم تقاسه
حديقة أخرى .

فلم تمر العاصفة وتنشع الغيوم حتى أصبحت أزهارها هباءً منثوراً ،
ولم يسلم منها بعد تلك المعمعة الهوجاء سوى طائفة البنفسج المختبئة بجدار
الحديقة .

ورفعت إحدى صبايا البنفسج رأسها فرأت ما حل بأزهار الحديقة
وأشجارها ، فابتسمت فرحة ثم نادت رفيقاتها قائلة : « ألا فانظرن ما
فعلته العاصفة بالرياحين المتشامخة تهباً وإعجاباً ! » .

وقالت بنفسجة أخرى : « نحن نلتصق بالتراب ولكننا نسلم من
غضب العواصف والأنواء » .

وقالت بنفسجة ثالثة : « نحن حقيرات الأجسام غير أن الزواجر لا
تستطيع التغلب علينا » .

ونظرت إذ ذاك مليكة طائفة البنفسج فرأت على مقربة منها الوردة التي كانت بالأمس بنفسجة ، وقد اقتلعتها العاصفة وبعثرت أوراقها الأرياح وألقتها على الأعشاب المبللة فبانَت كقتيل أُراده العدو بسهم .
فرفعت مليكة البنفسج قامتها ومدت أوراقها ونادت رفيقاتها قائلة :
« تأملن وانظرن يا بناتي . انظرن إلى البنفسجة التي غرمتا المطامع فتحولت إلى وردة لتتشاخ ساعة ثم هبطت إلى الحضيض . ليكون هذا المشهد أمثلة لكنّ » .

عندئذ ارتعشت الوردة المحتضرة واستجمعت قواها الخائرة وبصوت متقطع قالت :

« ألا فاسمعن أيتها الجاهلات المقتنعات ، الخائفات من العواصف والإعصار . فقد كنت بالأمس مثلكن أجلس بين أوراق الخضراء مكتفية بما قسم لي ، وقد كان الاكتفاء حاجزاً منيعاً يفصلني عن زوابع الحياة وأهوائها ، ويجعل كياني محدوداً بما فيه من السلامة متناهيماً بما يساوره من الراحة والطمأنينة . ولقد كان بإمكانى أن أعيش نظيركن ملتصقة بالتراب حتى يغمرنى الشتاء بثلوجه ، وأذهب كمن ذهب قبلي إلى سكينه الموت والعدم قبل أن أعرف من أسرار الوجود ومخباته غير ما عرفته طائفة البنفسج منذ وجد البنفسج على سطح الأرض . لقد كان بإمكانى الانصراف عن المطامع والزهد في الأمور التي تعلق بطبيعتها عن طبيعتي ، ولكنني أصغيت في سكينه الليل فسمعت العالم الأعلى يقول لهذا العالم « إنما القصد من الوجود الطموح إلى ما وراء الوجود » . فتمردت نفسي على نفسي وهام وجداني بمقام يعلو عن وجداني ومازلت أتمرد على ذاتي

وأشوق إلى ما ليس لي حتى انقلب تمردي إلى قوة فعالة ، واستحال شوقي إلى إرادة مبدعة فطلبت إلى الطبيعة — وما الطبيعة سوى مظاهر خارجية لأحلامنا الخفية — أن تحولني إلى وردة ففعلت ، وطالما غيرت الطبيعة صورها ورسومها بأصابع الميل والتشويق .

وسكنت الوردة هنيهة ، ثم زادت بلهجة مفعمة بالفخر والتفوق :
« أي لقد عشت ساعة كوردة . لقد عشت ساعة كملكة . لقد نظرت إلى الكون من وراء عيون الورود وسمعت همس الأثير بأذان الورود .. ولمست ثنايا النور بأوراق الورود . فهل بينكن من تستطيع أن تدعى شرفي ؟ »

ثم لوت عنقها ، وبصوت يكاد أن يكون لهاثاً قالت :
(أنا أموت الآن . أموت وفي نفسي ما لم تكنه نفس بنفسجة من قبلي . أموت وأنا عالمة بما وراء المحيط المحدود الذي ولدت فيه ، وهذا هو القصد من الحياة . هذا هو الجوهر الكائن وراء عرضيات الأيام والليالي) .

وأطبقت الوردة أوراقها وارتعشت قليلا ، ثم ماتت وعلى وجهها ابتسامة علوية — ابتسامة من حققت الحياة أمانيه — ابتسامة النصر والتغلب — ابتسامة الله .

الشاعر

أنا غريب في هذا العالم .

أنا غريب وفي الغربة وحده قاسية ووحشية موجعة ، غير أنها تجعلني
أن أفكر أبداً بوطن سحري لا أعرفه ، وتملاً أحلامي بأشباح أرض قصية
مارأتها عيني .

أنا غريب عن أهلي وخلاتي ، فإذا ما لقيت واحداً منهم أقول في ذاتي :
« من هذا ، وكيف عرفته ، وأي ناموس يجمعني به ، ولماذا أقرب منه
وأجالسه ؟ » .

أنا غريب عن نفسي ، فإذا ما سمعت لساني متكلماً تستغرب أذني
صوتي ، وقد أرى ذاتي الخفية ضاحكة باكية ، مستبسلة ، خائفة ،
فيعجب كياني بكياني ، وتستفسر روحي ، ولكنني أبقى مجهولاً ،
مستتراً ، مكتئفاً بالضباب ، محجوباً بالسكوت .

أنا غريب عن جسدي ، وكلما وقفت أمام المرأة أرى في وجهي مالا
تشعر به نفسي ، وأجد في عيني مالا تكنه أعماقي .

أسير في شوارع المدينة فيتبعني الفتيان صارخين : « هو ذا الأعمى
فلنعطه عكازاً يتوكأ عليها » . فأهرب منهم مسرعاً ، ثم ألتقي بسرب من
الصبايا فيتشبثن بأذيالي قائلات : « هو أطرش كالصخر فلنملاً أذنيه

بأنغام الصبابة والغزل . فأتركهن راكضاً . ثم ألتقى بجماعة من الكهول فيقفون حولي قائلين : هو أخرس كالقبر فتعالوا نُقوِّم اعوجاج لسانه . فأغادرهم خائفاً . ثم ألتقى برهط من الشيوخ فيومثون نحوى بأصابع مرتعشة قائلين : « هو مجنون أضاع صوابه في مسارح الجن والغيلان » .

أنا غريب في هذا العالم .
أنا غريب وقد جيت مشارق الأرض ومغاريها .
فلم أجد مسقط رأسي ولا لقيت من يعرفني ولا من يسمع لي .
أستيقظ في الصباح فأجدني مسجوناً في كهف مظلم تتدلى الأفاعي من سقفه وتدب الحشرات في جنباته . ثم أخرج إلى النور فيتبعني خيال جسدي ، أما خيالات نفسي فتسير أمامي إلى حيث لا أدري ، باحثة عن أمور لا أفهمها ، قابضة على أشياء لا حاجة لي بها ، وعندما يجيء المساء أعود وأضطجع على فراشي المصنوع من ريش النعام وشوك القَتَاد ، فتراودني أفكار غريبة وتتناوبني أميال مزعجة مفرحة موجعة لذيدة ، ولما ينتصف الليل تدخل علي من شقوق الكهف أشباح الأزمنة الغابرة وأرواح الأمم المنسية ، فأحدق بها وتحديقاً بي ، وأحاطبها مستفهماً فتجيبني مبتسمة ، ثم أحاول القبض عليها فتتوارى مضمحلة كالدخان .

أنا غريب في هذا العالم .
أنا غريب وليس في الوجود من يعرف كلمة من لغة نفسي .

أسير في البرية الخالية فأرى السواق تتصاعد متراكضة من أعماق
الوادي إلى قمة الجبل ، وأرى الأشجار العارية تكتسى وتزهر وتثمر
وتنثر أوراقها في دقيقة واحدة ، ثم تهبط أغصانها إلى الحضيض وتحول
إلى حيات رقطاع مرتعشة . وأرى الأطيوار تتقل متصاعدة ، هابطة ،
مغردة مولولة ، ثم تقف وتفتح أجنحتها وتقلب نساءً عاريات ،
محلولات الشعر ، ممدودات الأعناق ينظرن إلى من وراء أجفان مكحولة
بالعشق ، ويتسمن لي بشفاه وردية مغموسة بالعسل ، ويمددن نحوي
أيادي بيضاء ناعمة معطرة بالمن واللبان ، ثم ينتفضن ويختفين عن ناظري
ويضمحللن كالضباب تاركات في الفضاء صدى ضحكهن منى
واستهزاءهن لي .

أنا غريب في هذا العالم .

أنا شاعر أنظم ما تنثره الحياة وأنثر ما تنظمه ، ولهذا أنا غريب وسأبقى
غريباً حتى تحطفي المنايا وتحملني إلى وطني .

الكلام وطوائف المتكلمين

لقد مللت الكلام والمتكلمين .
لقد تعبت روحى من الكلام والمتكلمين .
لقد ضاعت فكرتى بين الكلام والمتكلمين .
أستيقظ فى الصباح فأرى الكلام جالساً بجانب مضجعى على
صفحات الرسائل والجرائد والمجلات . وهو ينظر إلى بعيون ملؤها الدهاء
والخبث والرياء .

أغادر فراشى وأجلس إلى جانب النافذة لأزيج نقاب النوم عن بصيرتى
بفنجان من القهوة ، فيتبعنى الكلام وينتصب أمامى راقصاً صارخاً
معربداً ، ثم يمد يده مع يدى إلى فنجان القهوة ويرتشف منه بارتشافى .
وإذا تناولت لفافة يتناولها معى . وإذا رميت بها رماها معى أيضاً .
أقوم للعمل فيلحق بى الكلام موسوساً فى أذنى ، مهنهماً حول
رأسى . مقرقعاً فى خلايا دماغى . فأحاول طرده فيضحك مقهقهاً ، ثم
يعود إلى الوسوسة والهمهمة والقرقعة .

أخرج إلى الشارع فأرى الكلام واقفاً فى باب كل حانوت ، منبسطاً
على جدران كل منزل . أراه فى أوجه الناس وهم صامتون . وفى حركاتهم
وسكناتهم وهم لا يدرون .

إن جالست صديقى يكون الكلام ثالثنا . وإن التقيت بعدوى ينتفخ
الكلام إذ ذاك ويتمدد ثم يتجزأ متحولاً إلى جيش عرمرم أوله مشارق
الأرض وآخره مغاربها . فإذا غادرت هارباً ظل صدى كلامه يتمايل

مختبئاً في باطنى اختباط طعام لا تهضمه المعدة .
أذهب إلى المحاكم والمعاهد والمدارس فأرى الكلام وأبا الكلام وأخاه
وهم يلبسون الكذب رداء ، والاحتتيال عمامة وحذاء .
ثم أسير إلى المعمل وإلى المكتب وإلى الإدارة فأجد الكلام واقفاً بين أمه
وعمته وجدته ، وهو يقلب لسانه بين شفثيه الغليظتين وهن يتسمن له
ويضحكن منى .

وإذا بقى لى شىء من العزم والتجلد وزرت المعابد والهياكل ، رأيت
هناك الكلام جالساً على عرشه وهو متوج الرأس وفي يده الصولجان دقيق
الصنع لطيف الجوانب ناعمها .

وعندما أعود في المساء إلى غرفتى أجد الكلام الذى سمعته سحابة
نهارى متديلاً كالأفاعى من سقفها . منسلاً كالعقارب في قرانها .
الكلام في الفضاء وما وراءه . وعلى الأرض وتحتها .
الكلام على أجنحة الأثير ، وفي أمواج البحر ، وفي الغايات
والكهوف ، وفوق قمم الجبال .

الكلام في كل مكان ، فإلى أين يذهب من يريد الهدوء والسكينة ؟
أيوجد في هذا العالم طائفة من الخرسان لأنتمى إليها ؟
هل يرحمنى الله ويمنحنى موهبة الطرش فأحيا سعيداً في جنة السكون
الأبدى ؟

أليس على وجه البسيطة قرنة خالية من شقشقة اللسان وبلبله
الألسنة ، حيث الكلام لا يباع ولا يشرى . ولا يعطى ولا يؤخذ .
ليت شعرى أيبين سكان الأرض من لا يعبد نفسه متكلماً ؟ هل يوجد

بين طغمات الخلق من لم يكن فمه مغارة للصمص الألفاظ !

*** .

ولو كان المتكلمون نوعاً واحداً لرضينا وتجلدنا ، ولكنهم أنواع وأشكال لا اعداد لها .

فهناك طائفة « المستضعفين » الذين يعيشون في المستنقعات النهار وطوله . وعندما يجي المساء يقتربون من الشواطئ رافعين رؤوسهم فوق سطح الماء ، مغممين صدر الليل بضجيج قبيح تأباه المسامع والأرواح . وهناك طائفة « المستبعضين » والبعوض من مولدات المستنقعات أيضاً ، وهم الذين يرفرفون حول أذنك بنغمة تافهة رقيقة شيطانية صداها النكاية ولحمتها البغضاء .

وهناك طائفة « المستطحين » وهي طائفة غريبة في داخل كل فرد من أفرادها حجر يدار بالكحول فيولد جمعجة جهنمية أخفها أثقل مما تحدثه حجارة الرّحى .

وهناك طائفة « المستبقرين » وهم الذين يملأون أجوافهم حشيشاً ثم يقفون على منعطفات الشوارع والأزقة مبطنين الهواء بخوار لطفه أغلظ من خوار الجماموس .

وهناك طائفة « المستبومين » وهم الذين يصرفون الساعات بين مقابر الحياة وأحداثها ، محولين سكينه الدجى إلى عويل أفراده أحزن من نعيب اليوم .

وهناك طائفة « المستنشرين » وهم الذين لا يرون من الحياة إلا أخشابها فيصرفون الأيام بتجزئتها وتفصيلها محدثين بذلك خشخشة أعذبها أضنك مما تحدثه المناشير .

وهناك طائفة « المستطبلين » وهم الذين يقرعون نفوسهم بمطارق ضخمة فيخرج من أفواههم الفارغة فرقة أطفها أغلظ من قرقة الطبول .
وهناك طائفة « المستعلكين » وهم الذين لا شغل لهم ولا عمل فيجلسون حيثما يجدون مقعداً ويمضغون الكلام ولكنهم لا يلفظونه
وهناك طائفة « المستهزين » وهم الذين يستغيبون الناس ويستغيبون بعضهم بعضاً ويستغيبون نفوسهم على غير معرفة من نفوسهم ، ولكنهم يدعون الاستغابة باسم المجون والمجون ضرب من الجد ولكنهم لا يعلمون .

وهناك طائفة « الأنوال » التي تحرك الهواء بالهواء ، ولكنها تظل هي بدون قمصان ولا سراويل .

وهناك طائفة « الزرازير » التي قال عنها الشاعر :
« لما حام حائمها توهمت أنها صارت شواهينسا » .
وهناك طائفة « الأجراس » وهي تدعو الناس إلى الهياكل ولكنها لا تدخلها .

وهناك طوائف وعشائر لا تعد ولا تحصى ولا توصف ، أغربها في عقيدتي طائفة نائمة تملأ الفضاء غطيظاً ولكنها لا تدرى .

والآن وقد أبت بعض قر في واشتمزأزي من الكلام والمتكلمين ، أراي كالطبيب المعتل أو كمجرم يقف واعظاً بين المجرمين . فقد هجوت الكلام ولكن بالكلام . وتطيرت من المتكلمين وأنا واحد من المتكلمين . فهل يغفر الله ذنبي قبيل أن يرخصني وينقلني إلى غابة الفكر والعاطفة ، وألحق حيث لا كلام ولا متكلمون .

الفهرس

صفحة		صفحة	
٦٩	فى ظلام الليل	٢	مقدمة
٧٢	الأضراس المسوسة	٥	حفار القبور
٧٦	مساء العيد	١٢	العبودية
٨٠	الجبايرة	١٦	الملك السجين
٨٤	مات أهلى	١٩	يسوع المصلوب
٨٨	الأمم وذواتها	٢٣	على باب الهيكل
٩٣	فلسفة المنطق	٢٧	أيها الليل
٩٧	العاصفة	٣١	الجنينة الساحرة
١١٢	الشيطان	٣٤	قبل الانتحار
١٢٦	الصلبان	٣٧	يا بنى أمى
١٤١	الشاعر البعلبكى	٤١	نحن وأنتم
١٤٨	السم فى الدسم	٤٥	أبناء الآلهة وأحفاد القروء
١٥٣	ما وراء الرءاء	٤٨	بين ليل وصباح
١٥٦	البنفسجة الطموحة	٥٤	المخدرات والمباضع
١٦١	الشاعر	٦١	السرجين المفضض
١٦٤	الكلام	٦٧	رؤيا



